نظرة حـــول مطالب الظالمين ومصارعهم

جمع وترتيب
د. رجب محمود بخيت

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]. وقد حذر النبي (ﷺ) من الوقوع في الظلم، فقال : «اتقوا الظلم؛ فإنه ظلمات يوم القيامة»(١).

ومن الظالمين : المصورون:

قال رسول الله (ﷺ) : «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي، فليخلقوا حبة، أو ليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا شعيرة»(٢).

حيث إنهم لا يتأدبون مع الله (عز وجل) وذهبوا يصورون التصاوير التي نهى النبي (ﷺ) عن فعلها، وابتدعوا أقوالاً ما أنزل الله بها من سلطان بأن رسول الله (ﷺ) إنما أراد بذلك التماثيل، والحديث الذي ورد فيه تحريم الصور، كان عندما رأى رسول الله (ﷺ) صورة طاووس على ستارة كانت عند عائشة، فهل كان هذا الطاووس تمثال أيها العاقل الفطن، وحرفوا في قول النبي (ﷺ) ، وقالوا: إن هذا خاص بالذي له ظل، فأي هراء وافتراء أكثر من هذا حيث يتأولون الأحاديث على أهوائهم، ولا يستندون فيها لقول الرسول ، ولا فعل الصحابة.

٢ ـ المعتدون على حقوق العباد:

قال النبي (ﷺ): «الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه. فأما الظلم الذي لا يغفره الله: فالشرك، قال الله: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وأما الظلم الذي يغفره؛ فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وأما الظلم الذي لا يتركه الله: فظلم العباد بعضهم بعضًا، حتى يدبر لبعضهم من بعض»(٣).

---

(١) **صحيح**.
خرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ١٩٩٦) «ح» (٢٥٧٨).

(٢) **صحيح**.
خرجه مسلم في «صحيحه» (٣/ ١٦٧١) «ح» (٢١١١).

(٣) **حسن**.
خرجه الهيثمي في «الزوائد» (١٠/ ٣٤٨)، ومعمر في «الجامع» (١١/ ١٨٣) ، والطيالسي في «مسنده» (١/ ٨٢٨٢) «ح» (٢١٠٩) ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٦١).

٣- الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسم الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

٤- الذي يكتم الشهادة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٥- افتراء الكذب على الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الأنعام: ٢١].

٦- الذي يسمع آيات الهدى ولا يهتدي:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

فاتقوا الله، ولا تكونوا من الظالمين.

قسم التحقيق بمكتبة الإيمان

السيد أبو سيف

بسم الله الرحمن الرحيم

مطالب الظالمين في الدنيا

المطلب الأول

الأول

المطلب الأول

المال

قال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الكهف :] .

وقال تعالى :﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : ٢٨] .

وقال تعالى :﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] .

وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن هذا الدنيا والدرهم ، هلكا مَن قبلكم وهما مهلكاكم** »(١) .

وقال كعب بن عياض ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « **إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال** »(٢) .

وقال حكيم بن حزام : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن هذا المال خضَر حلو فمن أخذه بحقه بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى** »(٣) .

وقال عمر بن الخطاب : احذروا المال فإن له ضراوة كضراوة الخمر.

وكان المال ولا يزال سببًا في طغيان الناس، وكم من أقدام زلت بعد ثبوتها وكم من قلوب قست بعد خشوعها وكم من أفئدة انقطعت عن الله بعد اتصالها بل وكم من نفوس كفرت بالله بعد إيمانها بسبب المال وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « **فتنة أمتي المال** ».

فعن كعب بن مالك ﷺ : قال : قال رسول الله ﷺ: « **ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه** »(٤) .

(١) البيهقي والطبراني .
(٢) الترمذي .
(٣) مسلم وأحمد .
(٤) الترمذي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « **شـاب قلب الشـيخ على حب اثنتين : حب العيش أو قال : طول الحياة وحب العيش** » [١] .

والمال لا يذم لذاته بل يقع الـذم لمعنى من الآدمي وذلك المعنى إمـا شـدة حرصـه أو تناوله من غير حله ، أو حبـه عن حقه أو إخراجه في غير وجـهه أو المفاخرة به، والمال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح لأنـه سبب للتوصل إلى مصـالح الدنيا والدين وقد سـماه الله تعالى خيرًا وهو قوام الآدمي قال تعالى في أول سورة النساء : ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ [النساء : ٥] .

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال، وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر لشر أراده الله بهما وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وقال يحيى بن مـعاذ : الدرهم عقرب فإن لـم تحسن رقيته فـلا تأخذه فإنه إن لدغك قتلتك سمه قيل : وما رقيته ؟ قال : أخذه من حله ووضعه في حقه وقال : مصيبتان للعبد في ماله عند مـوته لا تسمع الخلائق بمثلهمـا قيل : ما هما ؟ قال : يؤخـذ منه كله ويسأل عنه كله .

وقال سعيد بن المسيب : لا خيـر فيمن لا يريد جمع المال من حله يكف به وجهه عن الناس ويصل به رحمه ويعطي منه حقه .

وقال أبو إسحاق السبيعي : كانوا يرون السعة عونا على الدين .

وقال سفيان : المال في زماننا سلاح المؤمن .

وحاصل الأمر : أن المال مثل حية فيها سم وترياق فترياقه فوائده، وغوائله سمه فمن عرف فوائده وغوائله أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره .

جاء في كتاب مختصر منهاج القاصدين :

أما فوائد المال فتنقسم إلى دنيوية ودينية.

أما الدنيوية: فالخلق يعرفونها ولذلك تهالكوا في طلبها

وأما الدينية: فتنحصر في ثلاثة أنواع :

---

(١) البخاري ومسلم .

النوع الأول : أن ينفقه على نفسه ، إما في عبادة كالحج والجهاد وإما في الاستعانة على العبادة كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم يتيسر لم يتفرغ القلب للدين والعبادة ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا .

النوع الثاني : ما يصرفه إلى الناس وهو أربعة أقسام :

١ ـ الصدقة وفضائلها كثيرة مشهورة .

٢ ـ المروءة : ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك وهذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء .

٣ ـ وقاية العرض نحو بذلك المال لدفع هجو الشعراء وثلب ـ لوم وعيب ـ السفهاء وقطع ألسنتهم وكفّ شرهم فهو من الفوائد الدينية فإن النبي ﷺ قال : « **ما وقى الرجل من عرضه فهو صدقة** »[1]. وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

٤ ـ ما يعطيه أجرًا على الاستخدام فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لمهنة أسبابها كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالك ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ويحصل بذلك غرضك فإن تشاغلك به غبن لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد .

النوع الثالث : مالا يصرفه الإنسان إلى معين لكن يحصل به خيرًا عامًا كبناء المساجد والقناطر والوقوف المؤبدة فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقادة الفقر والعزبين الخلق والكرامة في القلوب والوقار .

أما غوائل المال وآفاته : فتنقسم أيضا إلى دينية ودنيوية .

---

(١) الحاكم .

أما الدينية فثلاث :

الأولى : أن يجر إلى المعاصي غالبًا لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعثت داعيته إليها .

ومن العصمة أن لا تجـد فلا صاحب القدرة إن اقتحم ما يشـتهي هلك وإن صبر بقى شره في معاناة الصبر مع القدرة وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

الثانية : أن يحرك إلى التنعم في المبـاحات حتى تصيـر له عادة وإلفة فلا يصـبر عنها وربما لم يقدر على استـدامتها إلا بكسب فـيه شبهه ـ فـيقتحم الشبـهات ويندفع إلى آفات المداهنة والنفـاق لأن من كثـر ماله خـالط الناس وإذا خـالطهم لم يسلم من نفاق وعـداوة وحسد غيبة وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال .

الثالثة : وهي التي لا ينفك عنها أحـد وهو أن يلهيه مـاله عن ذكر الله وهذا هو الداء العضال فإن أصل العـبادات ذكر الله تعالى والتفكر في جلاله وعظمتـه وذلك يستدعي قلبًا فارغًا ـ فارغ من كل شيء يشغله عن ذكر الله .

وصاحب الضيعـة يمسي ويصبح متفكرًا في خصومـة الفلاحين ومحاسبتـهم وخيانتهم ويتفكـر في منازعة شركـائه في الحدود والما، وأعـوان السلطان في الخراج والأجـراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك .

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكرًا في خيانة شـريكه وتقصيره في العمل وتضييعه المال .

وكذا سـائر أصناف المال حتى صاحب المجـموع المكنوز يفكر في كـيفيـة حفظه وفي الخوف عليه .

ومن له قوت يوم بيـوم فهو في سلامة من جـميع ذلك وهذا سوى ما يقـاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخـوف والحزن والهم والغم والتعب فإذا ترياق المـال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات[1] .

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ، ص ٢١٤ ـ ٢١٧ .

آفة الحرص :

إن الحرص والشح هو سبب هلاك الناس منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا وهو سمة من سمات الإنسان الضعيف الإيمان التي جبل عليها فقد قال رسول الله ﷺ : « **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم** »(١) .

يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : ١٦] ويقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [الليل : ٨ ـ ١١] .

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **لو أن لابن آدم مثل واد من ذهب لأحب أن يكون إليه مثله ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب** »(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد من ثديّهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع** »(٣) .

والجُنَّة : درع ومعناه : أن المنفق كلما أنفق سبغت وطالت حتى تجر وراء رجليه وأثر مشيه وخطوه .

ولنرى ونعايش في المؤمن كيف صنع الحرص والمال بمن سبق من الظالمين؟ وكيف كانت حياتهم؟ وكيف أودي بهم الحرص في الدنيا والآخرة؟

١ـ قصة الحرص (أصحاب الجنة) :

كان أحد الصالحين الأغنياء يعيش في قرية تسمى « ضروان » وكان من أهل المعروف

(١) مسلم .
(٢) البخاري ومسلم .
(٣) البخاري ومسلم .

وكانت له جنة [حديقة] يسير فيها سيرة حسنة فكان يستغل منها ويرد فيها ما تحتاج إليه من زرع، وكان يقسم ما تخرجه الحديقة ثلاثة أجزاء : جـزء يتقوت منه هو وعيـاله. وجزء يستخدمـه في زراعة الحديقة وإنمائها والجـزء المتبقي يتصدق به على الفقـراء والمساكين فلما مات وورثه بنوه الثلاثة بدلوا سنة وسـيرة أبيهم الحسنة وقالوا : لقـد كان أبونا أحمق ! إذا كان يصرف من هذه الأشياء للفقراء والمساكين ولو معناها منهم لتوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض مرادهم فلم يبق لهم أي شيء فذهب رأس المال والربح والصدقة.

قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(١) [القلم : ١٧ ـ ٣٣] .

« إنا بلوناهم » أي : اختبرناهم .

قال ابن كثير :

وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيـما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم إليهم فقابلوه بالتكذيب والمخالفة كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم : ٢٨ ـ ٢٩] .

﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهو : البستان المشتـمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ أي : حلفوا فيما بينهم ليجذُن ثمرها.

﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أي : وقت الصبح حيث لايراهم فقـير أو محتاج فيعطونه شيئـا فيتوفر عليهم ثمرها .

﴿ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي : أنهم لم يستثنوا بقولهم: إن شـاء الله ، وقيل : ولا يستثنون

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٢١ .

المساكين من جملة المحرومين من عطاياهم .

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي : طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله عز وجل ، وقيل : إن الطائف هو (السَّعفَة) وهي الاصطلاء بالنار التي اجتاحتها ولم تُبقِ منها شيئًا ينتفع به ، وقيل : إن الطائف كان جبريل عليه السلام حيث اقتلعها . وكل ذلك وهم نائمون .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي : أنها أحرقت فأصبحت كالليل المظلم الحالك الظلام المنصرم من الضياء وهذه معاملة بنقيض المقصود .

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضًا قائلين : ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أي : باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال .

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أي : تحدثوا فيما بينهم خفية قائلين ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ اتفقوا على ألا يدخلنها - الجنة - اليوم عليكم مسكين فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان أبوكم يعطيه -﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ أي : إنهم انطلقوا مجدين في ذلك قادرين عليه مضمرين في ذلك على النية الفاسدة .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي : وصلوا إليها ونظروا ما حصل بها وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحسن والبهجة فانقلبت بسبب النية الفاسدة فعند ذلك قالوا: ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما حل بهما من الفساد وذهاب ما فيها من ثمار وزروع قال بعضهم لبعض : قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه ، ثم إنهم لما تيقنوا أمرهم وعلموا أنها جنتهم وأن الله سبحانه وتعالى عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحرمنا بركة حرثنا .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي : أعدلهم وأفضلهم وخيرهم .

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾؟ أي : لولا تستثنون وهو قول القائل : إن شاء الله ، وقيل : لولا أن تقولوا وتعزموا خيرًا بدلاً من سوء نيتكم وما قلتم من الشر .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أي : يلوم بعضهم بعضًا على ما كان منهم من إضمارهم الشر وسوء نيتهم في منعهم المساكين من حقهم مما تخرجه الحديقة فما كان

جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب.

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي: إننا كنا في سوء نيتنا عاصين متجاوزين لحدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء وطغينا نعمة الله فلم نشكرها كما كان يشكرها أبونا.

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل: إنهم تعـاقدوا فيـما بينهم وقالوا: إن أبدلنا الله خيرًا منها لنصعن كما كان يصنع أبونا وبذلك نطلب عفو ربنا ونرجوا خيره.

﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي: هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحتاجين من خلقنا.

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: إن عذاب الآخـرة أعظم وأحكم من عذاب الدنيا لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون (١).

إن يؤدوا حقوق زروعهم يوم حـصادها، قال تعالى: ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

٢ـ قصة أصحاب الجنة « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة »

القرآن الكريم ضرب لنا مثلاً رجلين أحدهمـا مؤمن يريد الدار الآخرة والآخر كافر لا يؤمن بالبعث ولا بالحـساب ولا يرى إلا الدنيا فـقط بل ويعتقـد أن الذي يؤمن بالبعث من السفهاء البلهاء الذين لاعقل لهم ولكل واحد منهما قصة.

فقد كـانا شريكين ثم اقتســما المال فصار لكل واحـد منهما ثلاثة آلاف دينار فـاشترى المؤمن منهما عـبيدًا بألف وأعتقهـم، وبالألف الثانية ثيابًا فكسى بها العـراة وبالألف الثالثة طعامًا فـأطعم الجياع وبنى مساجد وفـعل خيرًا وأما الآخر فنكح بماله النســاء ذوات اليسار واشترى دوابًا وبقرًا فاستنتجها فنمت له نماءًا مفـرطًا واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى. وأدركت الأول الحاجة والفقر فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكي وصاحـبي فسألته أن يستخـدمني في بعض جناته رجدت أن يكون ذلك أصلح بي فجاءه فلم يكد يصل إليه من غلظ الحجاب فلما دخل عليـه وعرفه وسأله حاجته قال له:

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

قاسمك المال نصفين ! فماذا صنعت بمالك ؟ قال : اشتريت به من الله ما هو خير وأبقى. . . فقال: إنك لمن المصدقين بالبعث والنشور وما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سفيهًا وماجزاؤك عندي إلاالحرمان (١) .

يقول الله تعالى مخبرًا عن قصة هذين الرجلين : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف : ٣٢ ـ ٤٥] .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ يعني لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم وافتخارهم عليهم .

قال ابن كثير : كان رجلين مصطحبين وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرًا وكان لكل منهما مال فانفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته وابتغاء وجهه وأما الكافر فاتخذ له بساتين ـ وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور ـ فيهما : أعناب ونخيل وتحف تلك الأعناب والزروع في ذلك والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقى والتنزه وقد استوثقت فيهما الثمار واضطربت فيهما الأنهار وابتهجت الزروع والثمار وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلا له : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي : أوسع جنانًا ومراده : أنه خير منه ومعناه : ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته؟ ومنعناه : ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه ؟ كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلى فافتخر على صاحبه و﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أي : على طريقة غير مرضية قال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ وذلك لما رأى من اتساع أرضها وكثرة مائها وحسن نباتها وأشجارها ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دارة لكثرة مياهها ثم قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة ثم قال :

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي : لئن كان ثَمَّ آخرة ومعاد فلأجدن

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

هناك خيراً من هذا وذلك لأنه اغتر بدنياه واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له وحظوته عنده واغتر بما في يده .

يقول الله عز وجل : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥] .

ولما اغتر هذا الجاهل بما خوّل به في الدنيا فجحد الآخرة وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيراً مما هو فيه ، وسمعه صاحبه وهو يقول ذلك قال له : ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي : يجادله ، ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ أي : جحدت الآخرة وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب ثم من نطفة ثم صورك أطواراً حتى صرت رجلاً سويًا سميعًا بصيرًا تعلم وتبطش وتفهم فكيف أنكرت المعاد والله قادر على البداءة؟

﴿ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي : لكن أنا أقول بخلاف ما قلت وأعتقد خلاف اعتقادك : ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ أي : لا أعبد سواه وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها ويعيد الأشياء ويجمع العظام والرفات، وأعلم أن الله لا شريك له في خلقه ولا في ملكه ولا إله غيره ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول الجنة فقال :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

ولهذا يستحب لكن من أعجبه شيء من ماله أو أهله أوحاله أن يقول كذلك ثم قال المؤمن للكافر : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أي : في الدار الآخرة ،﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : عذابًا من السماء والظاهر : أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها .

﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أرضًا لا نبات فيها يُزلق عليها لملاستها .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ وهو ضد المعين السارح : أي تصير عادمة الماء ويغور ماؤها في الأرض .

﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ يعني : فلا تقدر على استرجاعه وإعادته .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ أي : جاءه أمر أحاط بجميع حواصله وخراب جنته ودمارها وأحاط بها عذاب الله من كل جانب .

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي : خربت بالكلية فلا عودة لها وذلك ضد ما كان عليه أمله حيث قال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴾ .

ويظل يضرب إحدى يديه على الأخرى وهو كناية عن الندم ، وندم على ما كان سلف منه القول الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول : ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ تمنى التوحيد من أجل الحفاظ على الجنة وهل ينفع الندم بعد أن زل القلب والقدم؟

قال تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ أي : لم ينفعه ماله وحشمه عندما نزل به بأس ربنا الذي لا يُرد عن القوم المجرمين .

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في ذلك الحال وفي كل حال الله الحق المبين .

﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي : معاملته خير لصاحبه ثوابًا وهو الجزاء يقول ابن كثير في تعقيبه على هذه القصة : « وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ولا يثق بها بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نصب عينيه وليكن بما في يد الله أوثق منه مما في يديه ، ومنها : أن من قدم شيئًا على طاعة الله والانفاق في سبيله عذب به وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده ، وفيها : أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق وأن مخالفته وبالٌ ودمار على من يرد النصيحة ، وفيها : أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر والحتم .

يقول ابن القيم : « وأعظم الخلق غرورًا من اغتر بالدنيا وعاجلها فآثره على الآخرة ورضي بها من الآخرة » (١).

ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم ولقد أحسن القائل :

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم

وإن للنعم أجنحة فمن قصها بمقراض الشكر جنحت إليه ومن أهمل ريشها حتى نَبَتَ نَبَتْ من بين يديه .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ص ١٢٩ .

آفة المال

« البطر وكفران النعمة »

يقول الله عز وجل : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢]

وقال الله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم ٧] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الإسراء : ١١١] .

﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها** » (١) .

قصة سبأ :

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ : ١٥ ـ ١٩] .

روى عن ابن عباس أنه قال : سأل رجل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ أرجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **بل هو رجل وُلد له عشرة سكن اليمن منهم ستة والشام منه أربعة ، أما اليمانيون : فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير ، وأما الشامية : فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان** » (٢) .

ويقول النسابون : إن سبأ سمى بذلك لأنه كان أول من سبى من العرب وقد كان فيهم التبابعة وكان لهم تيجان يلبسونها وقت الحكم وكانت العرب تسمى مَنْ ملك اليمن

(١) مسلم .
(٢) أحمد .

مع الشحر وحضرموت تُبعًا وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن : بلقيس[١] .

وكانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارة ،وثمار وزروع كثيرة وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد؛ فلما بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار أرسل الله إليهم الأنبياء يأمرونهم بتوحيد الله تبارك وتعالى فكانوا كذلك ما شاء الله ثم إنهم عدلوا عن الهدى إلى الضلال وسجدوا للشمس من دون الله؛ وكان ذلك زمن بلقيس وقبلها أيضًا فاستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم كما قال الله تعالى : **﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾** [سبأ : ١٥ ـ ١٩] .

وكان من أمر السد : أن الماء كان يأتيهم من جبلين ويجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما ـ الجبلين ـ سدًا عظيمًا محكمًا حتى ارتفع الماء وحكم على أعالي الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن كما ذكر غير واحد من أهل السلف[٢] .

فكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل (توضع فيه الثمار) فيتساقط من الأشجار ما يملؤه بالثمار من غير كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه وكان هذا السد بمأرب وهذه الجنان عن اليمين والشمال وكذلك الخصب والوفرة والمتاع الجميل ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين **﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾** .

وكفروا بالنعمة : نعمة البلد الطيب وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء وسماحة في السماء بالعفو والغفران فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران[٣]؟!

﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ فلم يكن يرى في قريتهم بعوض قط ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وإن كان الركب ليأتون وفي ثيابهم القمل والدواب فما هم إلا بيوتهم

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٦١ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٦١ ص ١٦٢ .
(٣) العفاني : الجزاء من جنس العمل ط ١ ص ٢٣٤ .

فتموت الدواب .

فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم وطيب ما بينها من البساتين وأمن الطرقات سألا أن يباعد بين أسفارهم وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب وطلبوا أن يبدلوا بالخير شرًا كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد كما قال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ .

يقول الضحاك : لما بغوا وطغوا بعث الله عليهم جرذًا فخرق السد فأغرقهم الله.

ويقول ابن زيد بعث الله على السد ـ جرذا وسلطه على الذي كان يحبس المال الذي يسقيها فأضرب في أفواه تلك الحجارة وكل شيء منها من رصاص وغيره حتى تركها حجارة ثم بعث الله سيل العرم فاقتلع ذلك السد وما كان يحبس واقتلع تلك الجنتين فذهب بهما[1] .

يقول ابن كثير في البداية و النهاية : « أرسل الله على أصل السد الفأر وهو الجرذ ويقال له: الخلد » وهي الفأرة العمياء ـ فلما فطنوا إلى ذلك أرصدوا عندها السنانير ـ القطط ـ فلم تغن عنهم شيئًا إذ قد حم القدر ولم ينفع الحذر كلا لا وزر ، فلما تحكم في أصله الفساد سقط وانهار فسلك الماء القرار فُقطعت تلك الجداول والأنهار وانقطعت تلك الثمار كما قال العزيز الجبار: ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ ﴾ وهو الأراك وثمره البريرة وأثل : وهو الطرْفاء وقيل: لشبهه وهو حطب لا ثمر له ـ والخمط ثمر مر لا يؤكل.

﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ قلة من شجر النبق ، أي : نبق قليل فيه شوك كثير .

﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾

أي : إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا وكذب رسلنا وخالف أمرنا وانتهك محارمنا .

وقال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ وذلك أنهم لما هلكت أموالهم

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٦٢ .

وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنهـا فتفرقوا في غور البلاد ونجدها سبأ شذر مذر فنزلت طوائف منهم الحجـاز ونزلت طائفة أخرى الشام: وهم الذين تنصروا فيما بعد .ا. هـ البداية والنهاية(١) .

قال ابن عباس : إن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن إنما تشأم منهم أربعة وبقى باليمن ستة وهم : مذحج، وكندة، وأنمار، وحميـر، وبجيلة، والأشعريون. فهؤلاء الستة من قبائل سـبأ أقاموا باليمن واسـتمر فيهم الملك والتـبابعة حتى سلبهم ذلك ملك الحـبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميريه أبرهة وأرياط وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل .

وكان جزاء كفران النعمة البطر ـ بعد النعم تحل النقم .

﴿ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا ﴾ قرى الشام .

﴿ فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ بينة واضحة يعـرفها المسافرون ويقيلون في واحـدة ويبيتون في أخرى وكذلك قال تعالى :﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أي جعلناهم : بحسب مـا يحتاج إليه المسافر .

﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي : أن الأمن حاصل فـيها لهم في سيـرهم ليلاً ونهارًا فلا يخافون ظلمًـا ولا جوعًا وإنما يغدون فيقيلون ويروحون فيـبيتون في قرية ، أهل جنة ونهر فكان المسـافر لا يحمل معـه زادا كانوا يسيرون غـير خائفين ولاجيـاع ولا ظماء وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضًا ولو لقى الرجل قاتل أبيه لا يحركه﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ .

قالوا : يا ربنا باعـد بين أسفارنا فاجعل بيـننا وبين الشام فلوات ومفاوز لنركب فـيها الرواحل ونتزود فـيهـا الأزواد وهذا من الدلائل على بطرهم نعمـة الله عز وجل وإحـسانه إليهم وجهلهم بمقدار العافية، ولقـد عجل الله لهم الإجابة كما عجل للقائلين :﴿ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] . أعطاهم ما رغبوا إليه وطلبوا من المسألة.

لما كفروا بالنعمـة والمنعم فبدلوا﴿ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ .

(١) ج١ ٢ ص ١٦٣ .

وقال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ .

قال ابن كثير : جعلناهم أحاديث للناس وسمرًا يتحدثون به عن خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهني؟ تفرقوا في البلاد ههنا وههنا ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : أيدى سبأ وأيادي سبأ وتفرقوا شذر ومذر (١).

وهذا جزاء كفران النعمة والمنعم .

﴿ ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾

يقول سيد قطب : « كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم ضيق الله عليهم الرزق ، وبدلهم من الرفاهة والنعماء خشونة وشدة ، وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشبة وغلبت عليهم الشقوة على سبأ فلم ينفعهم النذير الأول ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله لعله يرد عليهم ما ذهب من الرضاء بل دعوا دعوة الجهل والحمق (٢).

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ـ ص ١٦٣ .
(٢) الظلال ، جـ ٥ ، ص ٢٩٠١ .

آفة المال

الطغيان

قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم ٧] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن هذا الدنيار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم**(١) » .

وقيل : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

قصة قارون عابد المال :

خير مثال على طغيان المال وإهلاك صاحبه هي قصة قارون عابد المال وهي قصة البطر والاستعلاء في الأرض وترك شكر الله على النعم .

قال تعالى ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٧٦ - ٨٣] .

وقول أكثر أهل العلم: إن قارون ابن عم موسى - عليه السلام - وكان يسمى بالمنور

---

(١) البيهقي والطبراني .

لحسن صوته بالتوراة لكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه الله لكثرة ماله ، وقيل : كان من السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى ـ عليه السلام ـ لميقات الله عز وجل .

وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبرًا طولاً فوق هامته ترفعًا على قومه وقد ذكر الله كثرة كنوزه حتى أن مفاتيحه كانت يثقل حملها على القيام من الرجال الشداد وقيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً (١) .

وقد وعظه النصـحاء من قومـه قائلين : لا تفرح ـ أي : لا تبطر مما أعطيت وتفـخر على غيرك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ .

ولتكن همتك مصـروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة فـإنه خير وأبقى ومع هذا ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ تناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع نفسك بالملاذ الطيب الحلال .

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : أحسن إلى خلق الله كمـا أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك .

﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : لا تسيء إليهم ولا تفسـد فيهم فتقـابلهم ضد ما أمرت بهـمنهم فيعاقـبك ويسلبك ما وهبك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فما كـان جوابه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن قال :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ يعني : لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستـحقه وأني أهل له قال تعالى ردًا على ما ذهب إليه : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : قد أهلكنا من الأمم الماضية بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثـر أموالاً وأولادًا فلو كان ما قال صحيحـًا لم نعاقب أحدًا ممن كان أكثـر منه مالاً ، ولم يكن ماله دليـلاً على محبتنا له واعـتنائنا به كما قـال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [سبأ : ٣٧] .

(١) ابن كثير : البداية جـ ١ ص ٣١٨ .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ .

خرج في الحمرة والصفرة ، خرج في الخدم والعبيد والزينة فلما رآه طلاب الدنيا على هذه الحال ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء قالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ .

أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده وما أحسن ما قال بعض السلف : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات » .

قال ابن حجر بإسناد صحيح عن ابن عباس : « **إن قارون كان ابن عم موسى** » (١) .

واختلف في بغي قارون فقيل: الحسد لأنه قال : ذهب موسى وهارون بالأمر فلم يبق لي شيء وقيل : إنه واطأ امرأة من البغايا أن تقذف موسى بنفسها فألهمها الله أن اعترفت بأنه هو الذي حملها على ذلك ، وقيل : الكبر لأنه طغى بكثرة ماله. وقيل : هو أول من أطال ثيابه حتى زادت على قامته شبرًا .

قال ابن عباس : كان موسى يقول لبني إسرائيل : إن الله يأمركم بكذا حتى دخل عليهم في أموالهم فشق ذلك على قارون فقال لبني إسرائيل : إن موسى يقول : من زنى رجم فتعالوا فجعل ذلك فلما خطبهم موسى قالوا له : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا. فقالوا : فقد زنيت فجزع فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم عليها موسى وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلا صدقت فأقرت بالحق فخر موسى ساجدًا يبكي فأوحى الله إليه : أني أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت فأمرها فخسفت بقارون ومن معه(٢) .

ولما ذكر الله تعالى خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها .

قال : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : جـ ١ ـ ص ٣٢ .
(٢) العفاني : الجزء من جنس العمل جـ ١ ـ ص ٣١٦ .

كـما روى البـخاري أن النبي ﷺ قـال : « **بينا رجل يجـر إزاره إذ خـسف به فـهـو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة** » .

كـما روى البـخاري أن النبي ﷺ قـال : « **بينا رجل يجـر إزاره إذ خـسف به فـهـو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة** » .

﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ .

لم يكن له ناصـر من نفسـه ولا من غيـره ولما حل به من الخـسف وذهاب الأمـوال وخراب الديار وإهلاك النفس والأهل والعقار وندم من كان تمنى مثل ما أوتى، وشكروا الله تعالى الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قالوا :

﴿ **لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾ .

قال قتادة : ويكأن بمعنى : ألم تر أن :

يقول صـاحب الظلال : « في كل مكان وزمان تـستهـوي زينة الأرض بعض القلوب فتطير لهـا قلوب وتتهاوى لها نفوس وتتشـهاها أفئدة وتبهر الذين يريدون الحـياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها فلا يـسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الدنيا من مـال أو منصب أو جاه ومن ثم تتهافت نفوس وتتهاوى فأمـا المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقـيم الحياة وفي نفوسهم قيم أخـرى غير قيم المال والزينة والمتاع وهو أعلى نـفسًا وأكبـر قلبا أن يتهـاووا أو يتصاغروا أمـام قيم الأرض جمـيعًا ولهم من استـعلائهم بالله عاصم من التـخاذل أمام جاه العـباد وهؤلاء الذين أوتوا العلم، العلم الصحيح الذي يقوِّمون به الحياة حق التقويم[1] .

﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ** ﴾ هي دار القـرار وهي الدار التي يغـبط من أعطيـها ويعـزى من حرمـها إنما هي معدة للـذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا فـالعلوا : هو : التكبر والفخر والأشر والبطر و الفساد هو : عمل المعـاصي اللازمة المتعدية من أخذ أموال وإفساد معايش والإساءة إلى الخلق وعدم النصح لهم ثم قال تعالى﴿ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ .

﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ** ﴾ الدار الآخرة العالية الرتبة البـعيدة الآفاق للذين لا يريدون علوًا فلا يقـوم في نفوسهم خاطر اسـتعلاء بأنفسـهم لأنفسهم ولا يهجس في قلوبهـم الاعتزاز

(١) سيد قطب : الظلال ، جـ ٥ ، ص ٢٧١٣ .

بذواتهم إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله أولئك الذين لا يقيمون لهذه الدنيا وأشياءها وأعراضها وقيمها وموازينها حسبانًا ولا يبغون فيها كذلك فسادًا .

قال أبو معاوية : الذي لا يريد علوًا في الأرض : هو من لم يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها؛ وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا وأعزهم غدًا ألزمهم لذي اليوم .

وقد ذكر الله مذمة قارون في غير ما أية من القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤] .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت : ٣٩ ـ ٤٠] .

والذي خسف به الأرض كان قارون عليه لعنة الله (١).

لما طغى بماله وكنوزه ، والكنز هو المخبوء والمدخر من المال فهبت به الأرض فهنا استكبار لئيم وبطر ذميم لمغمور مطموس .

فهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءًا وفاقًا وذهب ضعيفًا عاجزًا لا ينصره أحد ولا ينتصر بجاه أو مال يعلم أنه وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم فليسوا هم الحكام ولا الأشهاد ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : ٧٨] .

آفة المال الغش :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[الإسراء : ٣٥] .

ويقول تعالى : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[الشعراء : ١٨١ ـ ١٨٣] .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ص ٣٢١ .
(٢) العفاني : الجزاء من جنس العمل جـ ١ ص ٣١٧ .

ويقول تعالى : ﴿ ويْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين : ١ ـ ٦] .

ويقول عز وجل : ﴿ لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ النساء: ٢٩ ـ ٣٠] .

ويقول عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال :٢٧ ، ٢٨] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله ـ عز وجل ـ :﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»(١) .

وعن ابن عباس أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والوزن : « **إنكم وليتم أمرًا فيه هلكت الأمم السالفة قبلكم** »(٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : « **يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا بينهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ،ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض مافي أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتحيروا فيما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم**»(٣) .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **من حمل السلاح علينا فليس منا ومن غشنا فليس منا**»(٤) .

(١) البيهقي وابن حبان .
(٢) الترمذي والحاكم .
(٣) ابن ماجه والبزار والبيهقي واللفظ لابن ماجه .
(٤) مسلم .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال : « **من غشنا فليس منا** » (١).

قصة الغش ـ مدين قوم شعيب ـ عليه السلام ـ :

كان أهل مدينة قوما عربًا يسكنون مدينتهم «مدين» وهي قرية من أرض معان في أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط وموقع «مدين» بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة وكان بها غيضة من الأشجار فأرسل الله إليهم أخاهم شعيبًا .

وعن أبي ذر الغفاري قال : قال رسول الله ﷺ : « **أربعة من العرب : هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر** » (٢).

وكان بعض السلف يسمى شعيبًا خطيب الأنبياء ـ يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعوة قومه إلى الإيمان برسالته (٣).

قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٥ ـ ٨٧] .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : ٨٤ ـ ٨٦] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا

---

(١) البزار .

(٢) ابن حبان .

(٣) ابن كثير البداية جـ ١ ص ١٩٠ .

بالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٨٩] .

كان أهل مدين كفارًا يقعطون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة ـ شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها ـ وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيها يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله إليهم شعيبًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأشياء والأفعال القبيحة فآمن بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد وهو الولي الحميد .

وأمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال :﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٥] .أي: طريق تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك ويخيفون الناس في السبل وكانوا يأخذون العشور من أموال المادة وكانوا أول من سن ذلك﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٦] .

نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦] وذكرهم بنعمة الله عليهم في تكثيرهم بعد القلة وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أخراهم .

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦] القليل من الحلال خير لكم من الحرام فإن الحلال مبارك فيه وإن قلّ وإن الحرام ممحوق وإن كثر .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود : ٨٧] .

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم : أصلاتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك أن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك، ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو أن نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأباها وإن

كنا نحن نرضاها .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾[هود : ٩١] .

منهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ولايريدون أن يدركوه وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة .

﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾[هود : ٩١] أي : إننا نراك فينا ضعيفًا مضطهدًا مهجوًا ولولا قبليتك وعشيرتك فينا ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾] هود : ٩١] ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾[هود : ٩٢] .

أي : تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعوني بسببهم ولا تخافون عذاب الله؟ ولا تراعوني لأني رسول الله ؟ فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾[هود: ٩٢] ، أي : جانب الله وراء ظهوركم .

﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾أي : هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه .

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار .

﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ أي في هذه الدنيا .

﴿ ويحل عليه عذاب مقيم﴾ [الأعراف : ٨٧] أي : في الآخرة .

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٩٠] .

لما بغوا وطغوا وعتو عتوًا كبيرًا كان لابد لهم من عقاب جراء عتوهم وطغيانهم .

فبعد الإستهزاء :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود : ٩١] .

ففي حســابهم عصبيــة العشيرة لا عصـبية الاعتــقاد وصلة الدم لا صلة القلب لم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود :٩١] حين تفرغ النفوس من العقيــدة القويمة فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبــة وقيمها الدنيا فلا ترى حرمة يومئذ لدعــوة كريمة ولا لحقيقة كبيــرة ولا تتحرج عن البطش بالداعيــة إلا أن تكون عصبة تؤيده أو إلا أن تكون مــعه قوة مادية تحــميــه، أما حرمــة العقــيدة والحق والدعــوة فلا وزن لها ولا ظل في تلــك النفوس الفارغة الخاوية(١) .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥] فهو عندهم من المــسحورين يخلط ويهذي ﴿ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء:١٨٦ ـ ١٨٧] في تحدي المستهزئ الهازئ المستهين طلبوا منه أن يسقط عليهم جانبًا من السماء أو كما يقول قتادة : قطعًا من السماء إن كان من الصادقين .

فكان العقاب :

قال عبد الله بن عمر : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء ثم إن الله أنشأ سحــابة فانطلق إليها أحــدهم واستظل تحتها فــأصاب تحتهــا بردًا وراحة فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعًا فاستظلوا تحتها فأججَّت نارًا .

وقال مــحمد بن كــعب القرظي : إن أهل مــدين عُذبوا بثلاثــة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها. فلما خرجوا منها، أصابهم فزع شديد فخافوا أن يدخلوا البيوت فــتسقط عليهم. فأرسل الله عليــهم الظلة فدخل تحتها رجل فــقال : ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا هلموا أيها الناس فدخلوا جميعًا تحت الظلة فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعًا ثم تلا محمد بن كعب :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

---

(١) العفاني : الجزاء من جنس العمل جـ ١ ص ٢٠٥ .

وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال : بعث الله عليهم وَمَدة(١) وحرًا شديدًا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا البيوت فدخل عليهم أجواف البيوت فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هربًا إلى البرية، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردًا ولذة فنادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله إلى الناس قال ابن عباس : فذلك ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

قال ابن كثير: قد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات وصنوفًا من المثلات وأشكالاً من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل عليهم منها شرر من النار في سائر أرجائها والجهات ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها:

في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم راجعين فقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ فقابل الأرجاف الرجفة والإخاف بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود:٩٤] ذلك لأنهم قالوا لنبيهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم. وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة وكان ذلك إجابة لما طلبوا وتقريبا لما إليه رغبوا فإنهم قالوا : ﴿ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٦ ـ ١٨٧] .

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف:٩٢] أي : لم يقيموا في دارهم عوقبوا بتوعدهم السابق بالإخراج وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجًا لا دخول بعده

(١) وَمَدة : ندى من البحر يقع على الناس في شدة الحر وسكون الرَع ، الجزاء من جنس العمل ط ص ٢٠٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ط ١ ص ١٩٠ ـ ١٩٣ .

دون شعيب .

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٢] .

الذين كذبوا شعيبًا ـ عليه السلام ـ عوقبوا بقولهم : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠] فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لتكذيبهم لا المتبعون شعيب ـ عليه السلام ـ الرد عليهم بعين ما تلفظوا به ، ما جعلوه نصيحة صار لهم فضيحة .

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٢] ولما قالوا : من اتبع شعيبًا خاسر قال الله تعالى : الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول (١).

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١] .

قال صاحب الظلال : الرجفة والجثوم جزاء التهديد والاستطالة وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ويرد السياق على قولهم : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠] وهي التي قالوا مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة فيقرر في تهكم واضح أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبًا إنما كان من نصيب قوم آخرين .

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٢] ففي ومضة ما نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين لا حياة ولا حراك كأن لم يعمروا هذه الدار وكأن لم يكن لهم فيها آثار .

ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال من رسولهم الذي كان أخاهم ثم افترق طريقه عن طريقهم فافترق مصيره عن مصيرهم حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم وعلى ضيعتهم في الغابرين : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣] .

خلت منهم الدور كأن لم يكن لهم فيها دور وكأن لم يعمروها حينا من الدهر مضوا مشيعين باللعنة طويت صفحتهم السوداء في الوجود وصفحتهم في القلوب : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : ٩٥](٢) .

---

(١) العفاني : الجزاء من جنس العمل ط ١ ص ٢٠٩ .

(٢) سيد قطب : الظلال ٥ جـ ٣ ، ص ١٣٢٢ .

يقول ابن كثير : لما قالوا : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨] ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٩١].أرجفوا بنبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [هود : ٨٧] .

قال ابن كثير : « لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم وتهكموا به فجاءت الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] . وكذلك وقع بهم كما سألوا جزاءًا وفاقًا فقال تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا جزاء من جنس ما سألوا من إسقاط الكسف عليهم ، قالوها على وجه التعنت والعناد فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه .

وقال ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى : ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بدارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال مقابلاً: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٩١] .

وقد ذكر الله صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن في الأعراف، وهود، والشعراء كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا(١) .

فيحذر العصاة مثل أفعى أفعالهم وليتق أعمى البصيرة شبه أعمالهم وليخف المطففون من أخذ التطفيف في مكيالهم وليسمعوا نذير العبرة فقد أوحى إليهم بشرح أعمالهم .

(١) تفسير ابن كثير .

آفة المال ـ الطمع والحسد :

روى عن جابر بن عـبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قـال : قال رسول الله ﷺ : «**إياكم والطمع فإنه هو الفقر وإياكم وما يعتذر منه**»[١] .

وعن أبي أمامة ـ رضـي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خـير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفـاف وابدأ بمن تعول واليد العليـا خير من اليد السفلى** »[٢] .

وعن سعـد بن أبي وقاص ـ رضي الله عـنه ـ قال : « **أتى النبي ﷺ رجل فـقـال: يا رسول الله أوصني وأوجز، فقال النبي ﷺ : عليك بالإياس مما في يدي الناس وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وإياك ومما يعتذر منه** »[٣] .

وعن سهل بـن سعد ـ رضي الله عنه ـ قـال : « جاء جـبريل إلى النبي ﷺ فـقال : يامحمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس »[٤] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: « **ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس** »[٥] .

قصة قابيل هابيل :

ما أحقـر الإنسان عندما يموت ضميره ويقـوده طمعه إلى ظلم غيره وحـسد ما في يد أخيه وتتبلد مشـاعره ويتحجر قلبه فلا تنفعه المواعظ ولا تنتظر خـيرًا لأن الشيطان قد غلبه فأصبح أسوأ سريره وأحقر الناس سيرة.

قابيل : كان أخًا أنانيًا تملك الحسد والطـمع من قلبه فطمست على عينه وقلبه فلم يعد يرى غير نفسه وحقه وماله وتناسى ما لغيـره وما عليه وكان يعمل حراثًا أي أنه كان يشتغل بالزراعة.

---

(١) الطبراني .
(٢) مسلم والطبراني .
(٣) الحاكم .
(٤) الطبراني .
(٥) البخاري ومسلم .

هابيل : كان أخا قابيل من بطن ثانية كان رجلاً طيبًا صالحًا أسلم القياد لله ـ عز وجل ـ في جميع أموره فانصلح قلبه وسيرته وسريرته كان محبًا للخير مؤثرًا طاعة الله وعبادته على نعيم الدنيا الزائل وكان يعمل برعي الأغنام.

أنجبت حواء عشرين بطنًا لآدم في كل بطن ذكر وأنثى وكانت الشريعة آنذاك تقتضي أن يتزوج الرجل توائمته التي ولدت معه وكان ذلك ضرورة تقتضيها الظروف .

ولدت حواء قابيل ومعه أخت جميلة تسمى (لوذا) وولدت هابيل ومعه أخت تسمى «إقْليميا ».

ولما كبر الأبناء وشب الإخوة في رعاية أمهم (حواء) وأبيهم (آدم) وبلغ الأبناء مبلغ الشباب وأخذ قابيل وهابيل يضربان في الأرض في طلب الرزق وكان قابيل أكبر ولد آدم صاحب حرث وزرع وكان هابيل صاحب ماشية وغنم .

وبعد مضي فترة من الزمن نزعت نفس كل من قابيل وهابيل للزواج وأفضيا برغبتهما إلى أبيهما آدم فأوحى الله ـ عز وجل ـ إلى آدم أن يزوج قابيل من توأمة هابيل ويزوج هابيل من توأمة قابيل .

فعن سعيد بن المسيب قال : إن الله أمر آدم أن يفرق في النكاح من كل بطن هذا لتلك وتلك لهذا.

امتثل آدم لأمر ربه وأخبر قابيل وهابيل بأمر الله عز وجل فامتثل هابيل لأمر ربه ولكن تحركت نوازع الشر والطمع في نفس قابيل ولم يرض بهذا الزواج ورأى في هذا الأمر إجحافًا لحقه لأنه رأي أن توأمة هابيل أقل جمالاً من توأمته وحسد أخاه هابيل على الزواج من شقيقته (لوذا) ولم يرض بالقسيم وجنح للعصيان وتمرد على أمر أبيه وانفجرت سريرته عما كانت تحوي من طمع وحسد على ماقسم لأخيه الذي أطاع ربه بامتثاله لأمر أبيه آدم .

فقال آدم لقابيل : « إن كنت لا ترض فقربا قربانا فقربناكما سيقضي بينكما » ، قال قابيل : وكيف يقضي بيننا ؟ قال :آدم : « من يُقبل قربانه فهي له ـ أي لوذا شقيقة قابيل».

وأما هابيل ذو النفس الزكية الراضية اختار أفضل ما عنده ليقدمه كقربان ـ فقدم كبشًا

سمينًا ليقدمه لربه .

وعمـد قابيل ـ ذو النفس الطماعـة الحريصة ـ إلى حـزمة رديئة من القـمح ومن شدة حرصه وطمعه قيل: إنه رأى سنبلة كبيرة فأخذها وأكلها .

حمل كل واحد منهمـا قربانه ووضعه في مكان مرتفع فنزلت نار من السـماء فحملت كبش هابيل ورفعته إلى السماء [(١)] .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١] .

فلما قُبِل قربان هابيل انبعـثت شرور قابيل وتحركـت نوازع الشر بداخله فقال لأخـيه هابيل : ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

فقال هابيل له :﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨ ـ ٢٩] .

قال ابن كثير : وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ وزجرًا لو انزجر [(٢)] .

قال ابن عباس : خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر .

ما كان من قابيل أمام هذه النصيحة الزاجـرة إلا سولت له نفسه المريضة أن هذا ضعفًا فازداد الشر بداخله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أي : حسنت له نفسه وزينت قتل أخيه فقتله .

وكان قابيل يتوعـد أخاه هابيل بالقتل إلى أن احتبس هابيل ذات عشيـة في غنمه فقال

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ـ ٤٨ .
(٢) ابن كثير : نفسه جـ ٢ ـ ص ٤٧ .

آدم : يا قابيل أين أخوك ؟ قال : أو بعثتني له راعيا؟ لا أدري! فقال آدم : ويلك انطلق يا قابيل فاطلب أخاك، فقال قابيل في نفسه : الليلة أقتله ، وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب فقال : يا هابيل تُقُبل قربانك ورد علي قرباني لأقتلنك ! فقال هابيل : قربت أحبب مالي وقربت أنت أخبث مالك وإن الله لا يتقبل إلا الطيب إنما يتقبل الله من المتقين، فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة فضربه بها ، فقال : ويلك يا قابيل أين أنت من الله؟ كيف يجزيك بعملك؟! فقتله فطرحه في حوبة من الأرض وحثى عليه شيئًا من التراب(١) .

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

خسر نفسه فأوردها النار، وخسر أخاه، وخسر أباه وأمه، وأحل على نفسه غضب الله ـ عز وجل ـ وباء بإثمه وإثم أخيه المقتول .

ووقف قابيل لا يدري ما يفعل؟ وبينما هو في حيرته وسكونه إذ مزق الصمت صوت غراب يتقاتل مع غراب آخر فقتل أحدهما الآخر فنزل الغراب القاتل فحفر للمقتول في الأرض ثم وارى جثته وأهال عليها التراب وهنا اكتشف قابيل ضعفه وعجزه لأنه لم يفكر مثل الغراب القاتل .

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] . وكانت عاقبة الطمع والحسد سيئة والجزاء من جنس العمل.

لما كان قابيل أول من اقترف جريمة قتل، ولما كان صاحب أول نفس طماعة حاسدة ولما كان أول من سن القتل فكان عليه وزرها ووزر من استن بها يقول عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ : إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب عليه شطر عذابهم » .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل** »(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول : « إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم الذي قتل

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٤ .
(١) صحيح : رواه الجماعة عدا أبي داود .

آخاه ما سُفِك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر وذلك أنه أول من سن القتل » .

وقال مجاهد: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ ووجهه في الشمس حيثما دارت دار عليه في الصيف حظيرة من نار وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج [1].

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٧ .

المطلب الثاني

السلطة والحكم

المطلب الثاني

السلطة والحكم

لطالما كانت السلطة والحكم هي من أكبر غايات الظالمين يحاولون بشتى الطرق الوصول إليها وإن كانت بعيدة المرمى صعدوا إليها ولو على جماجم وعظام الخلق لا يبالون في ذلك الأمر عاقبة الظلم في الدنيا والآخـرة وكأنما صمت آذانهم وطمست أعينهم وأغلقت قلوبهم فأصبحت كالكوز مجخيًا ، متبعين في نهجهم الغاية تبرر الوسيلة فمن أجل السلطة والحكم والوصول إليها اتبعوا وسيلة البطش والظلم والقتل وتناسوا أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله تعالى حجاب ولولا أن الله ـ عـز وجل ـ لا يعجل كعجلة أحدنا لتخطفـتهم الطير في كبد السماء ولكن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

وقد وردت الآيات القرآنية التي تحث على العدل والقسط في الحكم ولمن ولي شيئًا من أمور المسلمين .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] .

ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة :٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة : ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ [الأنعام :١٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات :٩] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ [النحل : ٩٠] .

وقال تعالى : ﴿ **وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ [الشورى : ١٥] .

وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة التي ترغب في العدل والقسط لمن ولى أمور المسلمين وترهب من الظلم والجور .

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : سبعة يظلهم الله في بظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » (١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »** (٢) .

وعن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **« يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة وحد يقام في الأرض بحقه أذكى فيها من مطر أربعين صباحًا »** (٣) .

وروى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **«يا أبا هريرة عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها ويا أبا هريرة جور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله ـ عز وجل ـ من معاصي ستين سنة »** (٤) .

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ : عن النبي ﷺ أنه قال : **« ما من أمير عشرة إلا**

---

(١) البخاري ومسلم .
(٢) مسلم .
(٣) الطبراني .
(٤) الأصبهاني .

يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل » (١).

آفة الحكم : الظلم.

كل من ولى أمـرًا للمسلمين فـهو مسـئول أمـام الله عز وجل إن كـان عادلا فُك من الأغلال وإن كان ظالمًا بقي في النار سـبعين خريفًا وهو مسئـول ومحاسب عن كل شيء .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كلكم راع ومسؤل عن رعيتـه الإمام راع ومسئـول عن رعيته والرجل راع في أهـله ومسئول عن رعـيته والمرأة راعية في بيت زوجـها ومسئولة عن رعـيتها والخادم راع في مـال سيده ومسئول عن رعـيته وكلكم راع ومسئول عن رعيته** » (٢).

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قـال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع** » (٣).

وعن عوف بن مالك ـ رضـي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « **إن شئـتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي** » فناديت بأعلى صوتي : وما هي يا رسول الله؟ قال : « **أولها ملامة وثانيها ندامة وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل وكيف يعدل مع قريبة؟!** » (٤).

هذا ما جعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ نبـراسًا لعدل الحكام وإماما في حكم البشر للبشر فكان ينعس وهو قاعد فـقيل له: يا أمير المؤمنين ألا ترقد ؟ ألا تنام؟ قال : إن نمت بالنهار ضيعت مصالح الرعية، وإن نمت بالليل ضيعت حظى مع الله .

عمـر بن الخطاب الذي كان يحـرم أهله وأقاربه من مغـانم السلطة والحكم وينزل بهم مغـارمهـا ـ السلطة ـ فـقال لهم يومًـا : « إني قد نهـيت الناس عن كذا وكـذا وإن الناس ينظرون إليكم كمـا ينظر الطير إلى اللحم فإن وقـعتم وقعـوا وإن هبتم هابوا وإني والله لا أوتي برجل منكم وقع فيمـا نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العـذاب لمكانه منى فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر .

(١) أحمد .
(٢) البخاري ومسلم .
(٣) ابن حبان .
(٤) البزار والطبراني .

من للمسلمين بمثل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ نبراس العدل ، ومن لنا بمثل يوسف بن تاشفين الذي ضرب سور مدينة فاس لما فتحها؟ فقال له وزراءه وخاصته: إنما ـ أي السور ـ هو الذي يفصل بيننا وبين عدونا ، فقال لهم : إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا !! .

من لنا بمثل عدل عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ الذي قيل عنه : ما قدم علينا بريد لعمر بن عبد العزيز بالشام إلا بإحياء سُنة أو قسم مال أو أمر فيه خير .

عمر بن العزيز الذي كان يأتيه المال فيأمر بتوزيعه على الفقراء فما يبرح حتى يرجع المال كما هو لأنه لم يجد من يأخذه لأنه قد أغنى الناس وقد كانت الإمارة غناء ورضاء للأمة وفقرًا وزهدًا له ولأهله .

إن التاريخ مليء بقصص وسير الصالحين من العادلين في حكمهم كما هو مليء بقصص الطغاة ولأن المجال لا يتسع وليس موضوعنا فسوف نكتفي بسير وقصص الطغاة والظلمة حتى نأخذ العبرة والعظة والله المستعان والموفق .

قصة فرعون عابد السلطة :

إنها قصة من عتى وطغى وبغى وتجبر وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى. وجعل أهلها شيعًا وقسم رعيته أقسامًا وفرقًا وأنواعًا، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الدين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض وقد سلط الله عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرذلها وأدناها ومع هذا ﴿ **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [القصص: ٤].

إنها قصة من صنع قصرًا كبيرًا من الظلم على حطام جماجم وعظام بني إسرائيل إنها قصة من أكل خير الله عز وجل وكفر بنعمته بتعذيب خلقه إنها قصة المخلوق الذي علا على خالقه وظلم خلقه قصة عابد السلطة فرعون عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

﴿ **طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم**

مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ١ ـ ٦] .

وكان الحامل له على التنكيل ببني إسرائيل وهذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما حفظوه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك مصر على يديه وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وهم يسمرون عنده فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذرًا من هذا الغلام فجعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذابحون من ساعته؛ ولن يغن حذر من قدر(١) .

هذا والقدر يقول : يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطته وبأسه واتساع سلطانه : قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا تخالف أقداره أن هذا المولود الذي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس مالا يعد ويحصى لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه ولاتطلع على سر معناه ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحى إليه ولتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد وأنه هو القوي الشديد ذو البائس العظيم والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها!

قال تعالى :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٧ ـ ٩] .

وهذا الوحي وحي إلهام وإرشاد وليس بوحي نبوة، وألقى في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك وأن الله سيجعله نبيًا مرسلاً ويعلي كلمته في الدنيا والآخرة .

والظاهر أن بيت أم موسي كان يطل على النيل فصنعت لموسى صندوقًا مغلقًا

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ؛ ص ٢٤٤ .

ووضعت فيه موسى وألقته في النيل وربطته بحبل إلى أحد الأشجار وبين الحين والحين تأخذه من الصندوق فترضعه ثم تعيده .

فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع ماء النيل فمر على دار فرعون ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ والتقطته الجواري من النيل في تابوت مغلق فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعته بين يدي امرأة فرعون « آسية بنت مزاحم» فلما فتحت الباب وكشف الحجاب ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبًا شديدًا فلما جاء فرعون قال : ما هذا؟ وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودافعت عنه وقال: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ .

فقال فرعون : أما لك فنعم وأما لي فلا حاجة لي به .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وعلمت أم موسى أن ولدها وصل إلى قصر فرعون فطاش عقلها وكادت تفصح عن نفسها وولدها وتسأل عنه جهرة لولا أن الله صبرها وثبتها وعرضت السيدة آسية بنت مزاحم موسى على كثير من المرضعات ولكنه رفض أن يلتقم ثدي إحداهن فلقد حرم الله المراضع عليه من قبل ليعود لأمه فلا يرضع إلا من ثديها ولكي يطمئن قلبها .

وفعلاً ذهبت أمه إلى قصر فرعون فلما رأى ثديها التقمه ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت وقالت : إن لي بعلاً وأولادًا ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت ، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والكساوي فرجعت أم موسى بولدها بولدها راضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا .

قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾

أي : كما وعدناها برده إليها ورسالته فهذا رده وهو دليل على صدق البشارة برسالته: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾

وبعد إتمام الرضاعة عاد موسى إلى قصر فرعون ليعيش فيه ، ولما شب موسى عليه

السلام وعلم مـا يتعرض له قومه من الأذى والظـلم والقتل وبدأت عداوته لفرعـون وقومه فكان مأوى لكل مظلوم ، ورزقه الله وأمده ببسـطة في العلم والجسم وحدث ما حدث من قتله للقبطي الذي تشاجر مع رجل من بني إسـرائيل كما ورد في سورة القصص وعلى إثر هذا هاجر موسى من مصر إلى مدين وقصته مع ابنتي شعيب عليه السلام ولقائه به وزواجه من إحدى ابنتيه ثم عـاد بزوجته من أرض مدين إلى مصر فمـر بجبل الطور وهنا كلمه الله عز وجل ونزلت عليه الرسالة وأمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون ومعه هارون كما طلب موسى : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي .هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٢] .

وذهب موسى وهارون عليهما السلام إلى قصر فرعون وناديا عليه فخرج لهما فقال له موسى : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه : ٤٧ ـ ٤٨] .

فرد عليهما فرعون قائلاً : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٩] .

فقال موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] .

قال فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴾ [طه : ٥١] .

أي : إن القـرون الأولى لم تعبـد ربك يا مـوسى بل عـبـدت الأوثان ونحـوها من المخلوقات فما بالهم وحالهم وشأنهم فرد عليه موسى : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] .

وفي سورة الشـعراء ذكر فوعون مـوسى عليه السلام بتربيـته له وفضله عليـه فقال : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨ ـ ١٩] ولما دار هذا الحوار ودحض مـوسى حجـة فرعون وألجـمه البرهان لم يجد فـرعون أمامه إلا لغة التهـديد والوعيد والإلقاء في غيـاهب السجون وهذه عادة كل طاغية فقال له : ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

فرد عليه موسى: ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ٣٠] .

قال فرعون : ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ٣١] .

فلما جاء موسى بآية ربه ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٢ - ٣٣] .

وبالرغم من هذا : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - عليه لعنة الله - بشيء من ذلك كله بل استمر على ما هو عليه وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة وأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره وفي دولته .

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٦ - ٥٩] .

يخبر الله تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها وقال لموسى: هذا الذي جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر الله آياته وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمعًا لهم من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام كما يروج عليهم محالاً وباطلاً بل طلب أن يكون نهارًا جهرة لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه وإن رغمت أنوف القبط.

قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٠ - ٦٤] يخبر الله تعالى عن فرعون - لعنه الله - أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء ، بارعين في فنهم غاية فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجمع غفير فقيل : كانوا ثمانين ألفًا وقيل: سبعين ألفًا (١).

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم وذلك أن فرعون نادى

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ، ص ٢٦١ .

فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم فخرجوا وهم يقولون : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٠] .

وتقدم مـوسى إلى السحـرة فوعظهم وزجرهـم عن تعاطي السحـر الباطل الذي فـيه معارضة لآيات وحـجج الله فقال : ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ .

وبعدها : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٥ ـ٦٩] .

فلما ألقى موسى عصاه فإذا هي تلقم كل حبالهم وعصيهم وقيل: إن رجلا أعمى كان يقف في المشهـد فقال لمن حوله : هل ظـهر على بطن حية مـوسى شيء؟ ، قالوا : لا ، فآمن في الحال(١) .

ولما رأى السحـرة ذلك أيقنوا بأن هذا ليس ساحـرًا وأن ما فـعله ليس بسحـر ولكنها معجـزة من قبل الله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨] .

قال ابن عباس : لما سجدوا أراهم الله مقعدهم في الجنة .

فلما رأى فرعون ذلك قال لهم : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ [الشعراء: ٤٩] .

ثم قال فرعون : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [الشعراء: ٤٩] .

يقصد : موسى هو الذي علمهم السحر وإنهم اتفقوا مع بعض على ذلك! .

ثم قـال لهم : ﴿ فَلَسَـوْفَ تَعْلَمُـونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِـلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩] .

فقال السحرة بعدما تغلغل الإيمان في قلوبهم بعدما رأوا الآيات البينات ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠ ـ

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ .

. [٥١

لما ثبتوا على إيمانهم قام فرعون ـ لعنه الله ـ بقتلهم وصلبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

قال ابن عباس : أصبحوا سحرة فجرة وأمسوا شهداء بررة .

وبعدما رأى فرعون هذه الآيات البينات لم يزدد إلا فجورًا وطغيانًا فجمع قومه وقال لهم : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤] .

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٤٠] .

وإمعانا في الطغيان ساق لقومه الأدلة والبراهين التي ـ يظن ـ أنها ترجح كفته أمام معجزات موسى عليه السلام فقال : ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣] .

ولما كان قومه يسايرونه في فسقه وفجوره وعتوه وطغيانه فقد حكم الله عليهم بالفسق فصدقوه وآمنوا بكلامه الباطل : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤] .

تعذيب السيدة آسية بنت مزاحم :

كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال : غلب رب موسى وهارون فتقول : آمنت برب موسى وهارون فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها وانُتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح .

قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه (١) .

وفي بعض الروايات : أن فرعون أوتد لها أوتادًا فشد يديها ورجليها فدعت آسية ربها

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

فقال : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١] فوافق ذلك أن حـضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها : إنا نعذبها وهي تضحك فقبض الله روحها في الجنة رضي الله عنها [١] .

تعذيب ماشطة بنت فرعون :

عن ابن عبـاس رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « **لما أُسري بـي مرت بي رائحة طيـبة فقلت : ما هذه الرائحـة الطيبة؟ قـال جبريل : ماشطة بنت فـرعون وأولادها ، سـقط المشط من يدها ـ وهي تمشط رأس بنت فـرعـون ـ فـقالت : باسم الله ، فـقـالت بنت فرعـون : أبي ؟، قـالت : ربي وربك ورب أبيك ، قالت : أو لك رب غـير أبي؟ ، قـالت : نعم، ربي وبرك ورب أبيك الله عز وجل . قال فأمر بنقرة من نحـاس فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها ، قالت: إن لي إليك حاجـة، قال : وما هي؟ قالت : تجمع عظامي وعظام أولادي في موضع ، قال : ذاك لك لما لك علينـا من حق ! قال : فأمر بهم فألقوا واحـدًا واحدًا حتى بلغ رضيـعًا فيهم فـقال : يا أمه قفي ولا تقـاعسي فإنك على الحق . قـال : وتكلم أربعة في المهد وهم صغار : هذا وشاهد يوسف صاحب جريج، وعيسى بن مريم عليه السلام**» [٢] .

وبعد النعم كانت النقم :

بعد ذلك لم يكن أمام فرعون وملأه إلا إعـلان الحرب وكان العامل المحرك هم زبانية الحكم وأعوان الظلمة والطغاة فقالوا لفرعون : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] .

فرد عليهم : ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] .

وتوجه مـوسى إلى فرعون ومـلأه محذرًا لهم من خطورة مـا يفعلون وعاقـبة مكرهم السيء وناداهم النداء الأخـير : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ

---

(١) ابن كثير : نفس المصدر جـ ٤ ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

(٢) البيهقي وأحمد والطبراني .

النَّار (٤٣) فستذكرون ما أقولُ لكُمْ وأُفوِّضُ أمْري إلى الله إنَّ اللَّه بصيرٌ بالْعباد (٤٤) فوقاهُ اللَّهُ سيِّئات ما مكرُوا وحاق بآل فرْعوْن سُوءُ الْعذاب (٤٥) النَّارُ يُعْرضُون عليْها غُدُوًّا وعشيًّا ويوْم تقُومُ السَّاعةُ أدْخلُوا آل فرْعوْن أشدَّ الْعذاب﴾ .[غافر : ٤١ ـ ٤٦].

فكان يدعوهم إلى عبادة رب السماوات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون !

فلما أبوا إلا الكفر كان الانتقام.

﴿ ولقدْ أخذْنا آل فرْعوْن بالسِّنين ونقْصٍ مِّن الثَّمرات لعلَّهُمْ يذَّكَّرُون ﴾ [الأعراف: ١٣٠] .

﴿ فأرْسلْنا عليْهمُ الطُّوفان والْجراد والْقُمَّل والضَّفادع والدَّم آياتٍ مُّفصَّلاتٍ فاسْتكْبرُوا وكانُوا قوْمًا مُّجْرمين﴾ [الأعراف: ١٣٣] .

السنين : شدة الجوع .

نقص الثمرات : محقت البركات وتمرد الشجر على إعطاء الثمر طاعة لرب الشجر والحجر والمدر فكانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة .

والطوفان : قال المفسرون: هو فيضان النيل الذي أغرق الأرض وأهلك الزرع ومعه ماء المطر في ظلمة شديدة لا يرون فيها شمسًا ولا قمرًا.

الجراد : آفة تأكل الزروع والأشجار ، والأبواب ، وأسقف المنازل والأمتعة .

القمل : قال ابن جرير : واحدتها قملة وهي تشبه القمل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : البراغيث .

الدم : فكان أحدهم يرفع الإناء ليشرب منه فيتحول الماء إلى دم نجس .

الضفادع : خرجت الضفادع من النيل كالجيوش فملأت أفنيتهم وآنيتهم فكان أحدهم لا يكشف ثوبًا ولا إناءًا ولا طعامًا ولا شرابًا إلا وجد فيه الضفادع ـ وكانت هذه الضفادع برية(١) .

وقال سعيد بن جبير : لما أتى موسى ـ عليه السلام ـ فرعون قال له : أرسل معي بني

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ، ص ٢٧٢ .

إسرائيل فأبى فأرسل عليهم الله عز وجل الطوفان وهو مطر فصب عليهم منه شيئًا خافوا أن يكون عـذابًا فقـالوا لموسى : ادع لنا ربك يكـشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل مـعك بني إسرائيل فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل - فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم تنبته من قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ فـقالوا : هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ فلما رأوا أثره على الكلأ عرفوا أنه لا يبقى فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا الجراد فـنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فـدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. فدرسوا الحب وأحرزوه في البيوت فقالوا: قد أحـرزنا فأرسل الله عليهم القـمل - هو السوس الذي يخرج مـنه - فكان الرجل يخرج عشرة أجـربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزه فـقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل مـعك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم القـمل فأبوا أن يؤمنوا ويرسلوا معـه بني إسرائيل ، فـبينما هـو جالس عند فرعـون إذ سمع نعـيق ضفدع فـقال لفرعون: ماتلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال فـرعون : وما عسى أن يكون كيد هذا!! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا. وأرسل الله عليهم الدم فكلما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدو دما عـبطًا فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب. فقال : إنه سحركم. فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دما عبيطًا ؟[1] .

وبالرغم من كل هذه العظات والعبر فلم يكن فرعون ليتعظ، ولكن دارت رأسه بمنطق القوة والسلطان .

فقال : ﴿ **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** ﴾ [الشعراء: ٥٤ - ٥٦] .

ثم انطلق يجمع جيوشه : ﴿ **فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ** ﴾ [طه: ٦٠] .

وأعلنها في بجاحة وغرور : ﴿ **قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**

---

(١) ابن كثير : ابداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ .

﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

فأمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يجمع بني إسرائيل ويسير بهم ليلاً إلى أرض سيناء قال تعالى : ﴿ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ** ﴾ [الدخان: ٢٣] .

فلما علم فرعون بذلك جمع جيشه وانطلق خلف موسى ومن معه من بين إسرائيل.

ووصل موسى ومن معه إلى شاطيء البحر ، وعلمت بنو إسرائيل أن فرعون وجيشه من ورائهم فخافوا وقالوا لموسى : ﴿ **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ [الشعراء: ٦١] .

فقال لهم موسى عليه السلام : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ [الشعراء: ٦٢] .

كان هذا هو منطق الواثق بنصر الله وبقدرته عز وجل : ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء: ٦٣] .

وعبر موسى ومن معه البحر ولما وصل فرعون إلى شاطيء البحر ووجدوه قد انفلق فقال : لقد انشق البحر فرقًا [خوفا] مني ومهابة من عظمتي ، ياله من غرور وتكبر وتجبر!!.

وعبر فرعون بجنوده البحر خلف موسى ولما توسط البحر عاد الماء لسيولته ولما أدركه الغرق أراد أن يمكر على الله عز وجل كما كان يمكر على قومه فقال : ﴿ **آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس : ٩٠] .

عن ابن عباس : أن النبي ﷺ قال : « **قال جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حمَاء البحر ـ طين البحر ـ فأدسه في فيِّ فرعون مخافة أن تدركه الرحمة** » [١] .

قال تعالى ردًا على مكره : ﴿ **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾ [يونس : ٩١ ـ ٩٢].

وهذا جزاء من تعالى على الحق وتكبر على الخلق ـ قال تعالى : ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ** ﴾] هود : ٩٨ ـ ٩٩]

قال ابن كثير : وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم

(١) ترمذي وأحمد .

يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض وردها وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ا. هـ . تفسير ابن كثير .

كان يريد أن يستأصل شأفة بني إسرائيل ويبـيـد خضراءهم فجوزى في نفسه وجنده بما أراد لهم فخرجوا من النعم إلى الجحيم !!

يقـول صـاحب الظلال : ضـربة واحـدة فـإذا هم هالكـون ومن التـعـالي والتطاول والاستكبار إلى الهوى في الأعماق والأغوار جزاءً وفـاقًا ضاعت عزة فرعون واقتداره على البغي والظلم. ضـاعت العزة الباطلة وسقط الاقتـدار الموهوم وأخذه الله أخذ عزيز مـقتدر صدقًا أخذهم أخذًا شديدًا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وبطش وجبروت.

قال ابن كثـير : الغرق في اليم ثم النقلة إلى الجحيم فـإن أرواحهم تعرض على النار صباح مساء إلى قيام الساعة فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار(١) .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ هذه النار هي الرفد والعطاء والمنة التي رقد بها فرعون قومه !! لم يعد السحرة عطاء جزيلاً ورفدًا مرفودًا فهذه رفده لمن اتبعه . . . النار ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ و﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ .

النمرود بن كنعان :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

يذكر الله مناظرة جليلة مع هذا الملك الجـبار المتمرد الذي ادعى لنفســه الربوبية فأبطل الخليل عليه دليله وبين كثرة جهله وقلة عقله وألجمه الحجة وأوضح له طريق المحجة .

قال المفسرون وعلماء النسب : وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمروذ بن كنعان بن كوش بن سام .

وكان أحـد ملوك الدنيـا فإنه قـد ملك الدنيا فـيمـا ذكر أربعـة : مؤمنان وكـافران. فالمؤمنان: ذو القرنين ، وسليـمان. والكافران : النمروذ وبختنصـر وذكروا أن النمروذ هذا

(٢) العفاني : الجزاء من جنس العمل جـ ١ ص ٢٢٢ .

استمر في ملكه أربعمائة سنة وكان قد بغى وطغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا .

كان هذا الطاغية يعبد الأصنام وما لبث أن دعا قومه لعبادته هو وحمل قومه على ذلك وحكمهم بالنار والحديد .

نام النمرود ذات ليلة فرأى كأن كوكبا طلع في السماء فذهب ضوء الشمس حتى لم يبق لها ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا ودعا الكهنة والمنجمين لتأويل رؤياه فقالوا : سيولد ناحيتك هذا العام غلام يكون هلاكك على يديه فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة وكانت أم إبراهيم عليه السلام قد حملت به فلما اقتربت ولادتها وأجاءها المخاض خرجت هاربة فوضعته في نهر جاف وذهب أبوه ووضعه في سرداب وجعل رزقه في أطراف أصابعه فكان يمصها وكانت أمه تتعهده خلسة بين الحين والحين حتى نما وكبر وكان على سنة يبدو وكأنه ابن ثلاث سنين فلما خرج من السرداب توهمه الناس وكأنه ولد منذ سنين » (١).

وقال إبراهيم عليه السلام : من ربي ؟ قالت : أنا ، قال : فمن ربك؟ قالت : أبوك! وقال : ومن رب ربي؟ قالت : نمرود قال : ومن رب نمرود؟ فلطمت وعلمت أنه الذي يذهب ملكهم على يديه .

وذلك مصداق قول الله عزوجل : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِين ﴾ [الأنبياء : ١٥] .

ولما دعاه إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم في ذلك وادعى لنفسه الربوبية فلما قال الخليل : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ .

قال قتادة : يعني أنه أوتي بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه أحيا هذا وأمات الآخر .

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أي : هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها وسيرها قاهرها وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت فأت بهذه

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٥٢، ١٥٣ .

الشمس من المغرب فإن الذي يحيي ويميت هـو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فإن كنت كما تزعـم فافعل ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم والناس جمـيعا يعلمون أنك لا تقـدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها .

فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهله ولم يبق له كلام يجيب به الخليل بل انقطع وسكت ولهذا قال : ﴿ **فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ .

وذكر السـدي : أن هذه المناظرة كـانت بين إبراهيم والنمرود يوم خـرج من النار ولم يكن اجتمع به يومئذ فكانت بينهم هذه المناظرة .

قال زيد بن أسلم : أول جبـار في الأرض كان نمرود فكان الناس يخرجون فيـمتارون من عنده الطعام فـخرج إبراهيم يمتـار مع من يمتارون فإذا مـر به ـ نمرود ـ ناس قال : من ربكم؟ قالوا : أنت ، حتى مر به إبراهيم فقال له : من ربك؟ قال : ﴿ **الَّذِي يحيي ويميت قَالَ أَنَا أُحيي وأُميت قَالَ إبْرَاهيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ .

قال : فـرده بغيـر طعام ، قال : فـرجع إبراهيم إلى أهله فـمر على كثـيب من رمل فقـال: ألا آخذ من هذا وآتي أهلي فـتطيب أنفسهم حين أدخل علـيهم ، فأخـذ منه فأتى أهله، قال : فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هي بأجود طعام رأته فصنعت له منه فـقربته إليه وكـان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام فـقال : من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به فعلم أن الله رزقه فحمد الله[(١)] .

قال زيد بن أسلم : ثم بعث الله إلى النمرود أن آمن بي وأتركك على ملكك ، قال: وهل رب غيري؟ فجاءه الثـانية فقال له : ذلك فأبى عليه ثم أتاه الثالثة فـأبى عليه فقال له الملك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام فـجمع الجبار جموعه فأمـر الله الملك ففتح عليه بابا من البعوض فطلعت الشـمس فلم يروها من كثرتها فبـعثها الله عليهم فـأكلت من لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام والملك كما هو لم يصـبه من ذلك شيء فبعث الله عليه

(١) البداية والنهاية جـ ١ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس من جمع يديه وضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة لملكه ثم أماته الله بها »(1).

وهو الذي بنى صرحا إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد وهو الذي قال الله فيه: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ [النحل : ٢] قال ابن كثير : مكثت في منخره أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمزارب في هذه المدة حتى أهلكه الله عز وجل بها.

لما استكبر وادعى الربوبية عاقبه الله بأضعف شيء بالبعوضة في منخره الذي هو علامة العزة فانظر كيف أذله الله؟ هذا خذلان لرأس الطاغين فكيف بالأذناب الأرذلين ؟!

أصحاب الأخدود من ظلمهم؟

قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ٤ ـ ١٠] .

وعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **كان ملك فيمن قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر فبعث الله غلاما يعلمه وكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر ، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره، فقال الراهب : أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة. فقال : ما هنا لك أجمع إن أنت**

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ص ١٥٤ .

شفيتني ، فقال : إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربي ، قال : أولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل به حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل فقال : إني لا أشفي أحدا وإنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار ، فوضع في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغ ذروته فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور - سفينة صغيرة - فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه، وإلا فأغرقوه ، فذهبوا به ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، قال: وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : بسم الله ربه الغلام ثم ارمني فإنك إذا فعلت قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام فأتي الملك فقيل له : أرأيت ماكنت تحذر ، قد والله نزل بك حذرك ، فقد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُدت ، وأضرم النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم: ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : « يا أماه اصبري فإنك على الحق » (١).

قال ابن كثير : روى الربيع بن أنس في قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾

(١) مسلم وأحمد والترمذي .

سمعنا أنهم كانوا قوما في زمان الفترة فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر ، وصاروا أحزابا، كل حزب بما لديهم فرحون ، اعتزلوا إلى قرية سكنوها ، وأقاموا على عباده الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين، وحُدث حديثهم ، فأرسل إليهم فأمرهم بعبادة الأوثان التي اتخذوها، وأنهم أبوا عليه كلهم ، وقالوا لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : إن لم تعبدوا هذه الآلهة التي عبدت ، فإني قاتلكم ، فأبوا عليه ، فخد أخدودا من نار ، وقال لهم الجبار وأوقفهم على النار : اختاروا هذه أو الذي نحن فيه فقالوا : هذه أحب إلينا ، وفيهم نساء وذرية ففزعت الذرية فقالوا لهم : أي آباؤهم - لا نار من بعد اليوم، فوقعوا فيها ، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها ، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين فأحرقهم الله بها ففي ذلك أنزل الله عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (1) .

قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ أي : لُعن .

قال ابن عباس : كل شيء في القرآن الكريم « قُتل» فهو لعن ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي : عند النار وكان الملك وأصحابه جلوسا على الكراسي عند الأخدود يعرضون على المؤمنين الكفر فمن أبى ألقوه .

﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أي : حضور .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال وما أنكروا عليهم ذنبا إلا إيمانهم بالله الذي لا يخفى عليه منهم خافية وفي هذا وعد ووعيد لأصحاب الأخدود.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي : حرقوهم بالنار ، وقيل : امتحنوهم في دينهم ليرجعوا عنه .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم للمؤمنين والمؤمنات .

---

(1) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٩٤ .

﴿ **فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ** ﴾ في الآخرة.

﴿ **وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ في الدنيا .

قيل: ﴿ **فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ** ﴾ بسبب كفرهم ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ بسبب فتنتهم المؤمنين والمؤمنات .

قال ابن كثير : كانت الأخدود في اليمن زمان تبع وفي القسطنطينية زمن قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد فاتخذوا أتوانا وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح ، والتوحيد وفي الطرق في أرض بابل ، بختنصر الذي صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه عزرا وميشائيل فأوقد لهم آتونا وألقى فيه الحطب والنار ثم ألقاهما فيه فجعلها الله عليهما بردا وسلامًا وأنقذهما منها وألقى الذين بغوا عليهم وهم تسعة رهط فأكلتهم النار »(١) .

قال ابن إسحاق : حدث أن رجلا من أهل نجران كان زمن عمر بن الخطاب حفر خربة من خراب نجران لبعض حاجته فوجد عبد الله بن التامر ـ وهو الغلام ـ تحتها دفن فيها قاعدا واضعا يده على ضربه في رأسه ممسكا عليها بيده فإذا أخذت يده تنبعث دما وإذا أرسلت يده ردت عليها فأمسكت دمها وفي يده خاتم مكتوب فيه : ربي الله ، فكتبت بذلك إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره فكتب عمر إليهم :أن أقروه على حاله وردا عليه الذي كان عليه ففعلوا(٢) .

يقول صاحب الظلال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ ومضوا في ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على ما فعلوا﴿ **ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ ينص على الحريق ، وهو مفهوم من عذاب جهنم ، ولكنه ينطق به وينص عليه ، ليكون مقابلا للحريق في الأخدود ، وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث ،ولكن أين حريق من حريق في شدته أو مدته؟! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله ومع حريق الدنيا رضا الله عن المؤمنين ، وانتصار لذلك المعنى الإنساني ومع حريق الآخرة غضب الله والارتكاس الهابط الذليل(٣) .

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ،ص ٤٩٤ .
(٣) سيد قطب : الظلال ، جـ ٦ ، ص ٣٨٧ .

عدو الله ورسوله والمؤمنين .

من هو؟

ـ الذي ألغى الخلافة الإسلامية العثمانية سنة ١٩٢٢ م .

ـ الذي كان يقول : لقد انتهى العهد الذي كان فيه الشعب يخدع بكلمات هي خاصة بالطبقات الدنيا ، أمثال كربلاء ، حفيد الرسول ، الإيمان ، السيف ، القدس .

ـ الذي ألغى الخلافة الإسلامية ومعها وزارة الشرعية ووزرارة الأوقاف ولم يدع مدرسة دينية .

ـ الذي أخرج الخليفة مع جميع أفراد عائلته من البلاد وبعد ذلك يجبر شعبه على ارتداء القبعة وهي العلامة الثالثة عند النصارى بعد الصليب والزنار ، كانت علامة دينية وضعت من قبل المسيحيين أثناء المعارك الصليبية ، ثم أصبحت قومية وقد أصبحت القبعة كعلامة للكفر بفتوى من الإمام النووي ، وتنصب المشانق من أجل المعارضين لارتدائها ويفرض العلمانية على بلاده ويقول عنها : إنها تعني أن نكون آدميين... آدميين... ويغير حروف الكتابة إلى الحروف اللاتينية .

ـ الذي باع أذربيجان المسلمة للروس الملاحدة عندما طلب من الأذربيجانيين السماح بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة لمساعدة بلاده وبعد أن دخل الملاحدة أذربيجان لم يخرجوا منها ولم يرسلوا جيشا لبلاده .

ـ الذي كان يجلس على مائدة السكر والخمر وسط الدعارة والفجور ويأمر عاهرة فاجرة من الراقصات فتقرأ أذان الفجر .

ـ الذي أراد أن تكون لغة الصلاة التركية بدلا من العربية .

ـ الذي أمر بتحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف وهو على مائدة الخمر والفجور .

ـ الذي كان يذهب إلى دار المعلمات ويأخذ البنات منها قسرا ليفسق بهن .

الذي كان يأمر الجرسونات في قصره من الرجال بلبس ملابس النساء ويرقصونهم وكانت رائحة الفلمنة والشذوذ تفوح من قصره .

إنه عدو الله ورسوله والمؤمنين مصطفى كمال أتاتورك .

فلا تعـجب من أن كان صاحب هذه الأفـعال صربيـا أو بلغاريا وأنه لم يتـحدث عن والده يوما وروايات كثيرة لا تقل نسبتها عن التسعين في المائة من الروايات أنه كان سفاحًا.

تناظر مدهش وعادل بين كـون مصطفى كمال أتاتورك ثمرة حرام من الناحـية الروحية وكونه ثمرة حرام من الناحية المادية يحمل في طياته معنى كبيرًا كيف أن هذه الروح السافلة كانت تسـتند في عالم المادة إلى أسـاس سافل؟ وأن هذ السفـالة في الروح والمادة تأتي في الحقيقة من كون مصطفى كمال أتاتورك عدوًا لله وعدوا لرسوله وعدوا للمؤمنين .

كان في فندق بـارك وكان المؤذن يقرأ الأذان في المسـجد الصـغير الكائـن أمام الفندق مبـاشرة يلتفت أتاتورك لمن حـوله قائلا : من قال : بأننا مـشهورون؟ وما شـهرتنا نحن ؟ انظروا إلى هذا الرجل - يعني رسول الله ﷺ - كيف أنه وضع اسما وشهرة بحيث أن اسمه يتكرر في كل لحظة وفي كل أنحاء العالم إذا أخذنا فرق الساعـات بنظر الاعتبار ، ليهدموا هذه المنارة!!!

يالها من بجاحة وسفالة هذا السفيه الوضيع أراد أن يكون أكثر شهرة من خير خلق الله ومعذرة لرسول الله ﷺ : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر : ٣] .

أما فـحشه وشـذوذه وعربدته وسكره ومـجونه فحـدث ولا حرج وحـدث عن ليالي جانفايا ولا حرج.

يتزوج من لطيفة هانم وتجـده رجلا سكيرا ، ويشاء الله أن يفضحـه على لسان زوجته فهو عديم الرجـولة وعنين بل وشاذ وشذوذه مع وداد بن خالد ضياء معروف ، وكـان سببا لطلاق زوجـته منـه ، قائلة له : لقـد رأيت كل شيء فـيك وعـملت كل شيء ولكني لا أستطيع تحمل هذا بعدما رأيتك مع هذا الشاب الأمرد .

هذا الفاجر الذي حاول الاعتـداء على المحارم فقد حاول الاعتداء على شقـيقة زوجته الصغرى ولكنهـا تخلصت بصعوبة وهرعت إلى غرفة شـقيقتها ودخل مـصطفى كمال إلى الغرفـة وفي يده مسدس واحتـضنت زوجته شـقيقتـها وأصبحـت حاجزا بينهمـا وسحب مصطفى كـمال الزناد ولكن لحـسن الحظ أن خادمه بكر أسـرع إليه وأمسـك بيده فطاشت الرصاصات الثلاثة .

كانت حياة هذا الماجن شرابا شرابا ، شرابا للخمر والعرق ، لا يكاد يفيق منه.

اقترب ذات يوم من صبي من غلمانه وسأله : لوضع أمام حماد دلوان في أحدهما ماء، وفي الآخر خمر فمن أيهما يشرب؟ فقال له الصبي من الخمر يا سيدي !! وكان يقول: إن هذا العرق يعطي النشوة للإنسان .

وكانت عشيقاته أكثر من حصرها صالحة وفكرية وآفة هانم عشيقته الدائمة التي أوصى لها عند موته ، زد على ذلك كانت ما بين عشرين وثلاثين من الفساد والفتيات الشابات المختارات بشكل خاص، وأطلق عليهن : بناته بالتبني ويوصي لهن عند موته بمقادير ثابتة طيلة حياتهن وكن يقمن بالرقص في حفلاته وهن شبه عاريات .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] .

وفي مرض موته - في قصره - ابتلاه الله بحشرات صغيرة حمراء لا ترى بالعين حتى اضطرته إلى الحك والحك الشديد أمام زواره حتى ظهرت على وجهه وأمر بتعقيم البيت بأقوى الأدوية وأكثرها فاعلية .

ويكتب مستشار وزارة الصحة ما يلي : نعم صحيح أنه وجد نمل في بعض أرجاء القصر ، حتى أن المختصين أثبتوا أنه نوع من النمل المهاجر من الصين إلى أوربا ولم يكن يخطر ببال أحد أن هناك وراء الحكة سببا آخر. ولذلك فقد روجعت مسببة الأركان العامة حيث أحيل الأمر إلى متخصصين من القوة البحرية ويحضر طاقم من مدمرة ياووز لتصيد النمل الذي في القصر ، مدمرة ياووز الموجودة في ميناء أزميت .

يا لقدرة الله عز وجل هذا الطاغية يعذب بحشرات حمراء صغيرة لا ترى بالعين وكما كان نمرود بن كنعان يعذب بحشرة في منخره فهذا الظالم مصطفى كمال يصاب بحشرة صغيرة تجعله مدعاة للسخرية والضحك لحكه الشديد أمام زواره ورواده.

ويا لقدرة الله النمل يهاجر من الصين إلى تركيا ليضرب هذا الطاغية كيف عبر الحدود والأراض والبحار والأنهار حتى وصل إلى داخل قصر الطاغية ؟! وانظر إلى حكمة الله فإنه بالرغم من كونه محاطا بالأطباء والأخصائيين وأساتذة الطب لم يكتشفوا أنه مريض بالكبد وذاق مر العذاب من سنة ١٩٣٦ حتى اكتشفوا المرض سنة ١٩٣٨، الذي يعرفه أقل الأطباء معرفة بالطب وابتلاه الله بتليف الكبد الذي أدى إلى الاستسقاء واحتاج إلى سحب الماء من بطنه بالإبر وكان يصيح بمن حوله من الأطباء : اسحبوا الماء حالا اسحبوها كلها لا

تدعوا منها شيئا [١] .

وفي يوم الخميس العاشر من أكتوبر يرحل إلى مزبلة التاريخ .

في حياته « كافر » وبعد مماته « صنم » :

وكعادة الصليبـيين فبعد موته يوضع في تابوته الرصاص ويعـرض لأعضاء نادي الكفر والفسوق والفجور الذي أسسه ويتدافع الناس لإلقاء نظره الوداع عليه ويموت نتيجة الازدحام الشديد أربعة عـشر شخصا وفـقدت بعض البنات بكارتهن بأصابع عديمي الحيـاء ، فسوق وفجور في حياته وبعد مماته !!

مَن تبجح وألغى الخلافـة الإسلامية وألغى أعياد الفطر والأضـحى، وجعل يوم الأحد هو يوم العطلة الرسمية الأسبوعية بدلا من الجمعة ومنع الحج من فعل هذا بدون خوف من الله؟ لا بد له وأن يخاف من كل شيء حتى ظله!!

كان في أحـد الأيام كان يقف على إحدى القـمم في مدرسة الزراعـة، وكانت الرياح شديدة، وكانت تثيـر الغبار ولأجلها تحرك الأبواب فتحـدث أصواتا ويهب هذا الفاجر من مكانه مذعورا قلقا قائلا : أليس هذا صـوت رشاش ؟ ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط بل عدة مرات ، فيقولون : إنه صوت الباب المندفع بسبب الريح ولكنه لا يصدق فيقوم ويتطلع من النافذة ثم يرسل من يحـقق السبب وأخيرا حاول في أحـد الأيام الهرب من هذا المكان بعد أن جمع جميع ملابسه ولكن جلال عارف وآخرين منعوه .

وفي أحد الأيام يجلس مـع آخرين في مجلس الأمـة الأعلى ، وظهرت عبـر النافذة الخلفية للبناء سحابـة كبيرة من الغبار كأنها صادرة من عـشرات الألوف من الأقدام المسرعة في ناحية السهل ، وعندما رأى أتاتورك هذا المنظر تهيـأ للهرب قائلا : هذه جيوش الخليفة آتية!! ثم ظهر بأنه لم يكن هناك سوى قطيع كبير من الغنم ، فأرسل معه في طريق عودته من يحرسه عاش خائفا ذليلا حتى وهو بين حرسه وفي قصره.

ـ ولم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم .

وأي ظهور للفاحـشة أكثر من الرقص والعهر والاغـتصاب وحياة العشـيقات والبنات

(١) العفاني : الجزاء من جنس العمل ٥ جـ ١ ، ص ٤٠٣ .

بالتبني لممارسة الرذيلة ورقص النساء عاريات وسط موائد الخمر أراد أتاتورك أن يمتع نفسه بالشهوة الحرام فابتلاه الله بالأوجاع والأسقام وحرمه الله من الرجولة ونعمة الأولاد لأنه كان عقيما بسبب إصابته بمرض الزهري وبسببه أصيبت زوجته بالسيلان ولم تتورع امرأته عن إذاعة سر عقمه[1] .

وسيق إلى مقبرة الطغاة الظالمين ووضعت سيرته في مزبلة التاريخ .

* * *

(١) العفاني : الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ٤٠٤ .

المطلب الثالث

المنصب والجاه

المطلب الثالث

المنصب والجاه

إن المناصب والسعي وراءها هي من أكبر غايات الإنسان وهي التي من أجل الوصول إليها ـ حملت الإنسان على ظلم أخيه وانتهكت المحارم باسمها؛ لذلك ورد في الشرع الإسلامي النهي عن سؤال الإمارة وترك المناصب إذا لم يتعين على الإنسان أو تدعو الحاجة إلى ذلك .

قال تعالى ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

وقد حث الرسول ﷺ أمته على العفة عن سؤال المنصب والبعد عن ما يوجب المسئولية أمام الله عز وجل وما يورد المهالك .

فعن عبد الرحمن بن سمرة ـ رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **يا عبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها وإن أُعطيتها عن مسألة وُكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها ، فأت الذي هو خير وكَفِّر عن يمينك** »(١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **يا أبا ذر أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تَأمرَنَّ على اثنين ولا تولَّين مال يتيم** »(٢) .

وعنه أيضا قال : قلت : يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: « **يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدَّى الذي عليه فيها** »(٣) .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة** »(٤) .

---

(١) متفق عليه .
(٢) مسلم .
(٣) مسلم .
(٤) البخاري .

وقد نهى النبي - ﷺ - عن تولية المناصب لمن كان حريصا عليها خوفا من أن تفسده ولأن من طلبها وحرص عليها قد قلت تقواه وورعه لأن المناصب مسئولية أمام الله - عز وجل - وقد وصفها رسول الله ﷺ بأنها خزي وندامة ، فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي ، فقال أحدهما : يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاَّك الله عز وجل - وقال الآخر مثل ذلك فقال : « **إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله أو أحدًا حرص عليه** » ولأهمية المناصب واتصالها بالناس فقد حث الإسلام ولاة الأمر اتخاذ الصالحين ذوي التقوى والورع وتحذيرهم من قرناء السوء والقبول منهم بأي حال من الأحوال ، قال تعالى :﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعفه** » (٢) .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف ، وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه والمعصوم من عصم الله** » (٣) .

وقد رهّب النبي ﷺ ولاة الأمور من اتخاذ وزير أو رجل في منصب ما. وهو أقل منه أو في الأمة من هو خيرٌ منه وأكفأ قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « **من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين** » (٤) .

وعن يزيد بن أبي سفيان قال : قال لي أبو بكر الصديق حين بعثني إلى الشام : «يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة وذلك أكثر ما أخاف عليك بعدما قال رسول الله ﷺ : « **من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل**

---

(١) متفق عليه .
(٢) أبو داود .
(٣) البخاري .
(٤) الحاكم .

الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم » (١) .

ومن المعلوم أنه لا ينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودة ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف .

وقال الأحنف بن قيس : من فسدت بطانته كان كمن غُصَّ بالماء ومن غُصَّ بالماء فلا مساغ له ومن خانه ثقاته فقد أُوتي من مأمنه ممن غُص وآوى بشرب الماء غصته ، فكيف يفعل من قد غصْ بالماء؟ وقال عمرو بن العاص : لا سلطان إلا بالرجال .

وقالوا : إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه .

وقالوا : ليس شيء أضر على السلطان من صاحب يُحسن القول ولا يُحسن الفعل ولا خير في القول إلا مع الفعل .

وقالوا : إن السلطان إذا كان صالحا ووزراءه وزراء سوء امتنع خيره من الناس ، ولم ينتفع منه بمنفعة . . شبهوا ذلك بالماء الصافي يكون منه التمساح فلا يستطيع أحد أن يدخله وإن كان محتاجا إليه .

وقد امتلأ التاريخ بنماذج من كان وزيرا أو عاملا أو ذا منصب ممن كانوا صالحين زانوا المكان وكانوا خير معين لولاة الأمر .

أمثال نبي الله هارون : ﴿ **وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً** ﴾ [طه : ٢٩] .

وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وزيرا رسول الله ﷺ .

وعمر بن عبد العزيز وزير سليمان بن عبد الملك الذي دخل على سليمان بن عبد الملك وعنده ولي عهده ابنه أيوب وقد عقد له من بعده فقال له ـ لأيوب ولي العهد ـ: إذا أفضي الأمر إليك وإلى أمثالك فما يدخل عليّ أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا. فقال سليمان لأيوب : مه وسّبه ، وقال : لأبي حفص تقول هذا؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حلمنا عنه .

(١) الحاكم .

وأمثال رجاء بن حيوة الذي امتن على المسلمين بمشـورته الصائبة على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن عبد العزيز خليفة للمسلمين من بعده.

وقال رجاء بن حيوة : « لما ثقل على سليـمان ، رآني عمر في الدار أخرج وأدخل ، فقال : يا رجـاء أذكرك الله والإسلام أن تذكرني لأميـر المؤمنين أو تشير عليه إن اسـتشارك فوالله ما أقوى على هذا الأمر فانتهرته وقلت إنك لحريص على الخلافة أتطمع أن أشير عليه بك؟ فاستحـيا ودخلت فقال سليمان : من ترى لهذا الأمـر ؟ فقلت : اتق الله فإنك قادم عليه وسـائلك عن هذا الأمر ومـا صنعت فيـه؟ قال : فمن ترى ؟ قلت: عـمر بن عـبد العزيز.

ومن أمثال الوزير الكبير نـظام الملك العالم العادل وزير السلطان ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه .

هذه نماذج فريدة وإن التاريخ الإسلامي يذخر بالعديد منهم الذين كانوا جبالا شامخات تفرد لهم المجلدات لذكرها ولكن حسبنا دليلا ما كان من أمثلة .

وإن التاريخ أيضا ليـذخر بالعديد من نماذج الوزراء والكتاب والقـضاة الذين عاثوا في الأرض فسادا وتولوها بغير حقها وسنفرد لهم بعض الأمثلة الآتية .

محمد بن عبد الملك الزيات :

كان من العصبـة التي كان لها يد في سجن علماء الأمة وتعـذيبهم وعلى رأسهم إمام أهل السنة .

روى الطبري في تاريخه عنه : أمر بتنور من خـشب فيه مسامير حديد قـيام فذكر عن ابن أبي دؤاد وأبي الوزير أنهما قـالا : هو أول من أمر بعمل بذلك فضـرب به ابن أسباط المصري حتى استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلى به فعذب به أياما .

وقال الذهبي في ترجمته : وكان يقـول بخلق القرآن ويقول :ما رحمت أحدا قط !! الرحمة خور في الطبع فُسجن في قفص حَرِج جهامة مسامير كالمسالِّ فكان يصيح ارحموني فيقولون له : الرحمة خور في الطبيعة [1].

---

(١) الجزاء من جنس العمل . جـ ١ ص ٣٥٢ .

كل عُذِّب بمطلبه في الدنيا قبل الآخرة :

عن مسعر بن وهب ، وكان مؤدبا للخليفة المتوكل قبل أن يلي الخلافة : جلس - المتوكل - في مجلسه وجلس عن يمينه الفتح بن خاقان ، وعبيد الله بن خاقان ، وعن يساره بغا الكبير ووصيف وأنا واقف في زاوية البيت اليمنى مما يليه وخادم آخذ بعضادة الباب واقف ، إذ ضحك المتوكل فأرم القوم وسكتوا فقال : ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا : مم ضحك أمير المؤمنين أضحك الله سنه ؟ فقال : أضحكني أني ذات يوم واقف على رأس الواثق وقد قعد للخاصة في مجلس الذي كنت فيه جالسا وأنا واقف على رأسه وأردت الدخول فمنعت ووقفت حيث الخادم واقف وجلس ابن أبي دؤاد في مجلسك يا فتح وجلس محمد بن عبد الملك الزيات في مجلسك يا عبيد الله وجلس إسحاق بن إبراهيم في مجلسك يا بغا ، وجلس نجاح في مجلسك يا وصيف ، إذ قال الواثق : والله لقد فكرت فيما دعوت الناس إليه من أن القرآن مخلوق وسرعة إجابة من أجابنا وشدة خلاف من خالفنا حتى حملنا من خالفنا على السوط والسيف والضرب الشديد والحبس الطويل ولا يرده ذلك إلى قولنا فوجدت من أجابنا رغب في ما أيدينا وأسرع إلى إجابتنا رغبة فيما عندنا ووجدت من خالفنا منعه دين وورع عن إجابتنا وصبر على ما يناله من القتل والضرب والحبس ، فوالله لقد دخل قلبي من ذلك أمر شككت فيما نحن فيه ، وفي محنة من نمتحنه ،وعذاب من نعذبه في ذلك ، حتى هممت بترك ذلك الكلام والخوض فيه ، ولقد هممت أن آمر بالنداء في ذلك وأكف الناس بعضهم عن بعض ، فبدأ ابن أبي دؤاد فقال : الله الله يا أمير المؤمنين أن تميت سنة قد أحييتها وأن تبطل دينا قد أقمته !! ولقد جهد الأسلاف ، فما بلغوا فيه ما بلغت ، فجزاك الله عن الإسلام والدين خير ما جزى وليا من أوليائه!!

ثم أطرقوا رؤوسهم ساعة يفكرون في ذلك إذ بدأ ابن أبي دؤاد ، وخاف أن يكون من الواثق في ذلك أمر فيقضي عليه ويفسد عليه مذهبه فقال : والله يا أمير المؤمنين إن هذا القول الذي نحن عليه ، ندعوا إليه الناس لهو الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله وبعث به محمدا نبيه ﷺ ولكن الناس عموا عن قبوله ! فقال الواثق : فإني أريد أن تباهلوني على ذلك ، فقال ابن أبي دؤاد : ضربه الله الفالج في دار الدنيا قبل الآخرة إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقا من أن القرآن مخلوق .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات : وهو ، فسمر الله يديه بمسامير من حديد في دار الدنيا قبل الآخرة إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقا من أن القرآن مخلوق .

فقال إسحاق بن إبراهيم : وهو ، فأنتن الله ريحه في دار الدنيا حتى يهرب منه حميم وقريب إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقا من أن القرآن مخلوق.

وقال نجاح : وهو ، فقتله الله في أضيق محبس إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقا من أن القرآن مخلوق .

ودخل عليهم إيتاخ وهم في ذلك فأخذوه على البديهة وسألوه على ذلك فقال : وهو، فغرقه الله في البحر إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقا من أن القرآن مخلوق.

وقال الواثق : وهو ، فأحرق الله بدنه بالنار في دار الدنيا قبل الآخرة إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقا من أن القرآن مخلوق.

فأضحك أنه لم يدع أحد منهم يومئذ بدعوة على نفسه إلا استجيبت. أما ابن أبي دؤاد : فقد رأيت ما نزل به وما ضربه الله به من الفالج وأما ابن الزيات: فأنا أقعدته في تنور من حديد وسمرت يده بمسامير من حديد.

وأما إسحاق بن إبراهيم : فإنه مرض مرضه الذي مات فيه ، فأقبل يعرق عرقا منتنًا حتى هرب منه الحميم والقريب وكان يلقى عليه كل يوم عشرون فتؤخذ منه وهي مثل الجيفة فيرمي بها في دجلة لا ينتفع بها ، تتقطع من شدة النتن والعرق . وأما نجاح : فأنا بنيت له بيتا ذراعا في ذراعين حتى مات فيه. وأما إيتاخ : فأنا كتبت إلى إسحاق بن إبراهيم وقد رجع من الحج كبله بالحديد وغرقه.

وأما الواثق : فإنه كان يحب النساء وكثرة الجماع فوجه ذات يوم إلى ميخائيل الطبيب فدعى له ، فدخل عليه وهو نائم في مشرفة وعليه قطيفة من خز فوقف بين يديه ، فقال: يا ميخائيل ابغني دواء للباءة فقال: يا أمير المؤمنين بدنك فلا تهده ، فإن كثرة الجماع تهد البدن ، ولاسيما إذا تكلف الرجل ذلك ، فاتق الله في بدنك وأبق عليه ، فليس لك من بدنك عوض. فقال له : لابد منه ثم رفع القطيفة عنه ، فإذا بين فخذيه وصيفة قد ضمها إليه، ذكر من جمالها وهيئتها أمرا عجيبا. فقال : من يصبر عن مثل هذه؟ قال : فإن كان ولابد فعليك بلحم السبع ، فأمر أن يؤخذ لك منه رطل فيغلي سبع غليات بخل خمر

عتيق، فإذا جلست على شرابك أمرت أن يوزن لك منه ثلاثة دراهم فانتقلت به على شربك في ثلاث ليال ، فإنك تجد فيه بغيتك ، واتق الله في نفسك ولا تسرف فيها ولا تجاوز ما أمرتك به .

فلهى عنه أياما فبينما هو ذات ليلة جالس على شرابه إذ ذكره فقال : عليّ بلحم السبع الساعة فأخرج له سبع من الجب وذبح من ساعته ، فأمر فكبكب له منه ثم أمر فأغلى له منه بالخل ثم قدر له منه فأخذ ينتقل به على شرابه وأتت عليه الأيام والليالي فسقى بطنه فجمع له الأطباء ، فأجمع رأيهم على أنه لا دواء له إلا أن يسجر تنور بحطب الزيتون ويشحن جوفه بالرطبة ويقعد فيها ثلاث ساعات من النهار ، فإن استسقى ماء لم يسق ، فإذا مضت ثلاث ساعات كوامل أخرج منها وأجلس جلسة منتصبة على نحو ما أمروا به فإذا أصابه الروح وجد لذلك وجعا شديدا وطلب أن يرد إلى التنور فترك على حالته تلك ولا يرد إلى التنور حتى تمضي ساعتان من النهار فإنه إذا مضى ساعتين من النهار جرى ذلك الماء وخرج من مخارج البول وإن سُقي ماءً أو رُدّ إلى التنور كان تلفه فيه .

فأمر بالتنور فأخذ له وعرى وأجلس فيه وأقبل يصيح ويستغيث ويقول : أحرقتموني اسقوني ماء ، وقد وكل به من يمنعه الماء ولا يدعه أن يقوم من موضعه الذي اقعد فيه ولا يتحرك فتنفط بدنه فصارت فيه نفاخات مثل أكبر البطيخ وأعظمه ، فترك على حالته حتى مضت له ثلاث ساعات من النهار ، ثم أخرج وقد كاد يحترق أو يقول القائل في رأي العين قد احترق فأجلسه المتطببون ، فلما وجد روح الهواء اشتد به الوجع والألم يصيح ويخور خوار الثور ويقول : ردّوني إلى التنور فإني إن لم أرد مِت فاجتمع نساؤه وخواصه لما رأوا به من شدة الألم والوجع وكثرة الصياح فرجون أن يكون له فرجة في أن يرد إلى التنور ، فردوه إلى التنور ثانية ، فلما وجد مَسَّ النار سكن صياحه وتفرطت النفاخات التي خرجت ببدنه وخمدت وبرد في جوف التنور فأخرج من التنور وقد احترق وصار أسود كالفحم فلم تمض به ساعات حتى قضى .

فأضحك أنه لم يَدعُ أحد منهم على نفسه في تلك الساعة بدعاء إلا استجاب الله له في نفسه (١) .

---

(١) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد نقلا عن الجزاء من جنس العمل ص ٣٥٥ .

القاضي : أحمد بن أبي دؤاد الإيادي :

قاضي المعتصم الذي جرّ البلاد إلى محنة خلق القرآن وبسببه أهين علماء الأمة وعذبوا وسجنوا وقتلوا .

هذا الذي تكلم في عـقـيـدة أهل السنة وشـأنها وتكلـم في أحمـد بن حنبل وعـاب معتقده.

وكان ابن أبي دؤاد معتزليًا وبسببه قتل أحمد بن نصر الخزاعي وسجن الإمام أحمد بن حنبل وعذب بالسياط ودعا عليه الإمام أحمد فحبسه الله في جسده كما حبس الإمام ودخل عليـه وعاده عبـد العزيز الكناني وقـال له : لم آتك عائـدا بل لأحمد الله أن سـجنك في جلدك.

قال ابن كثير : ابتلاه الله بالفالج قـبل موته بأربع سنين حتى بقى طريحا في فراشه لا يستطيع أن يحـرك شيئا من جسـده وحُرِمَ لذة الطعام والشراب والنكاح وغـير ذلك، جعل نصف جسده لو سقط عليه الذباب فكأنما نهشته السـباع والنصف الآخر لو نهشته السباع لم يحس بها .

وقد دخل عليه بعضـهم فقال : والله ما جئتك عائدا وإنما جـئتك لأعزيك في نفسك وأحمد الله الذي سجنك في جسدك الذي هو أشـد عليك عقوبة من كل سجن ، ثم خرج عنه داعيا عليه بأن يزيده ولا ينقصه مما هو فـيه فازداد مرضا إلى مرضه ، وفي سنة ٢٣٨هـ صودرت أموال ابنه أبي الوليد ومات قبل أبيه بشهر(١) .

وقـال في مكان آخـر : في سنة سـبع وثـلاثين ومـائتين في ربيع أول أمـر الخليـفـة بالاحتياط على ضياع ابن أبي دؤاد وأخذ ابنه أبا الوليد فحبسه في يوم السبت لثلاث خلون من ربيع الآخر وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعـشرين ألف دينار ، ومن الجواهر النفيسة ما يقـوم بعشـرين ألف دينار ثم صولح على سـتة عشـر ألف ألف درهم ثم نفي أهله من سامراء إلى بغداد مهانين قال ابن جرير : فقال في ذلك أبو العتاهية :

(١) ابن كثير : البداية والنهايةجـ ١ ص ٣٤٥ ـ ٣٥٠ .

لو كنت في الرأي منسوبًا إلى رشد ... وكان عزمك عزما فيه توفيقُ
لكان في الفقه شُغُل لو قنعتَ له ... عن أن تقول: كتاب الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم؟ ... ماكان في الفرع لولا الجهل والموق[١]

قال الإمام أحمد : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز حين تمر . فلما مات إمام أهل السنة كانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ المسلمين فلما نزلت رأس أحمد بن نصر من على الصليب كان يوما مشهودا وصدق الله قول أحمد ، فأحمد بن أبي دؤاد قاضي قضاة المسلمين آنذاك لم يحتفل أحد بموته ولم يلتفت إليه ، ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان جزاءا وفاقا [٢].

ابن هانيء شاعر المعز العبيدي الفاطمي :

أحد الشعراء الفجرة ، أعطاه الله ملكة الشعر فتزلف بها لأصحاب السلطة واتخذ من الشعر وسيلة للتكسب والتربح وانساق به الحال إلى الفسوق وأخرج من قريحته أبياتا أشد كفرا ونفاقا من أجل المال فقد كان يقول للمعز :

ما شئت لاما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وقال له أيضا :

ندعوه منتقما عزيزا ... غفار موبقةِ الذنوب

وقال له أيضا :

وأتيك من ترزقه يُرزق من الورى ... ورَاكا ومن يحرم من الناس يُحرم

وقال له أيضا :

أدارَ كما شاء الورى وتحيزت ... على السبعة الأفلاك أنْمُلُه العَشَرُ

وقال فيه أيضا :

أرى في مدحه كالمدح لله إنه ... قنوت وتسبيح يحط من الوزر

---

(١) المرق : الحمق والوفاء .
(٢) الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ٣٥١ .

وقال أيضا ـ لعنه الله :

ولطالما زَاحَمْتُ تحت ركابه جبريل

ومن ذلك قوله :

حَلَّ برقَادَةَ المسيحُ حَلَّ بها آدمُ ونـــوح
حل بَها ذو المعالي فكل شـيء سواه ريح

قال ابن كثير : استصحبه المعـز الفاطمي من بلاد القيروان حين توجه إلى مصر فمات ببعض الطريق وجد مقتولا على حافة البحر في رجب سنة ٣٦٢ هـ ، وقد كفره غير واحد من العلماء لأقواله وأشعاره وشدة مدحه للمعز الفاطمي (١) .

ومما قيل في محمد بن هانئ أيضًا :

خرج من القـصر فأصيب بمرض فكان يعـوي كالكلب على فراشـه ويقول: أنت أنت الواحد القهار وأخذ يبكي ويقول :

أبعين مفتقر إليك نـظرت لي فأهنتني وقذفتني من حالق
لست الملوم أنا الملوم لأنني علقت آمالي بغير الخـالق

ولأنه رام غير الله فوكله الله إلى المعز الفاطمي فقتله في النهاية ولأن من وجد الله فما فقد . ومن فقد الله فما وجد .

الحجاج بن يوسف الثقفي ـ بئس المبدل النعمة بالنقمة :

كان الحـجاج بن يوسف الثقفي من أشـد الناس فصاحـة وبلاغة وأكثر الناس جـمالا وحلاوة في المنطق والخطابة .

ولد الحجـاج سنة ٤٠ هـ ثم نشأ شابا لـبيبا فصـيحًا بليـغا حافظا للقـرآن قال بعض السلف: كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة .

وقال عنه أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري .

وقال عقبة بن عمرو : ما رأيت عقول الناس إلا قريبا من بعض إلا الحجاج وإياس بن

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : جـ ١١ ، ٢٩٣ .

معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كل ذلك قبل أن يلي شيئًا من الولايات وقبل أن يصبح سوطا لجلد المظلومين وقبل أن يكون سيافًا لقتل من أراد الأمويون فلما تولى خدمة الأمويين أصبح عثمانيًا أمويًا يميل إليهم ميلا عظيما ويرى أن خلافهم كفر ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه في ذلك لومة لائم فقد كان ظلوما جبارا ناصبيا خبيثًا سفاكًا للدماء قد امتلأ تاريخه الأسود بصفحات عديدة من ظلم الناس كتب بمداد من دم من قتلهم ، ففيه حصاره لابن الزبير ابن حواري رسول الله ﷺ في الكعبة ورميه إياها بالمنجنيق وإذلاله لأهل الحرمين وقتله سعيد بن جبير وإرهاب خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك وتأخيره الصلوات إلى أن استأصله الله، ومحاولته التنقص من الصحابي الجليل ابن عمر رضي الله عنهما ، فنحن نَسبُّه ولا نحبُّه بل نبغضه في الله فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان .

وعن هشام بن حسان قوله : أحصوا ما قتل الحجاج صبرا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا أي جبار كان وأي طاغية كان .

قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم .

قال ابن كثير : أعظم ما نقم على الحجاج وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله عز وجل (١) .

دخل الحجاج ذات يوم على أسماء بنت أبي بكر بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير وقال لها: إن ابنك ألحد في هذا البيت ، إن الله أذاقه من عذاب أليم وفعل . فقالت : كذبت. كان بارا بوالديه ، صواما قواما ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذاب** » فالكذاب فابن أبي عبيد تعني المختار بن عبيد الثقفي ـ وأما المبير فأنت .

ياله من متبجح صفيق الوجه يتعرض لابنة الصديق ويؤذيها في ابنها بعد أن قتله وهو ابن حواري رسول الله ﷺ ولكن ليس بمستغرب على من قل إيمانه وذهب حياؤه !! ومن أعظم ذنوب هذا الطاغية قتله للإمام الجليل سعيد بن جبير رضي الله عنه .

قال ابن كثير :

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : جـ ٩ ، ص ١٤١ .

قال الحجاج لسعيد بن جبير : والله لأقتلنك !

قال سعيد : إني إذا لسعيد كما سمتني أمي .

قال : فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوما وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه، ويقول : يا عدو الله فيم قتلتني؟

فيقول الحجاج : مالي ولسعيد بن جبير .

الحجاج بن يوسف الثقفي يصف نفسه .

ـ قال عـبد الملك بن مروان يومـا للحجاج : ما من أحـد إلا وهو يعرف عيب نفـسه فصف عيب نفسك ، فـقال الحجاج : اعفني يا أمير المؤمنين ، فـأبى ، فقال : أنا لجوج ـ متمادي في الخصومة ـ حقود حسود ، فقال عبد الملك : ما في الشيطان شر مما ذكرت وفي رواية أنه قال : إذا بينك وبين إبليس نسب (١) .

ـ خطب الحجاج يوما فأقبل عن يمينه فقـال : ألا إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فقال : إن الحجاج كافر ، فعل ذلك مرارا ، ثم قال : كافر يا أهل العراق باللات والعزى!!

قال ابن كثير في البداية : وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق ـ مما سلف من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم والافتيات عليهم.

دخل أنس بن مالك على الحـجاج بن يوسف فلما وقـف بين يديه قال له : إيه إيه يا أنس ، يوم لـك مع علي ويـوم لك مع الزبيـــر ، ويوم لك مع ابـن الأشـــعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة فقال أنس : إياي يعني الأمير أصلحه الله ، قال : إيـاك أعني صك الله سمعك . قال أنس : إنا لله وإنا إليـه راجعون، والله لولا الصبية الصغار بالبيت أي قـتلة قتلت ولا أي منية مت ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج .

وكان كتاب أنس بن مالك:

« أما بعد : فـإن الحجاج قال لي هُجرًا وأسمـعني نكرًا ولم أكن لذلك أهلا فخذ لي على يديه فـإني أمتُّ بخدمـتي رسول الله ﷺ وصـحبتي إيـاه والسلام عليك ورحـمة الله

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٩ ، ص ١٣٩ .

وبركاته .

ولما وصل الخبر إلى عبد الملك بن مروان استشاط غضبا وبعث يستدعي إسماعيل بن عبيد الله المهاجر ـ وكان مصادقا للحجاج ـ فقال له : دونك كتابيّ هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فادفع كتابي إليه وأبلغه مني السلام وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك .

وكان كتاب عبد الملك بن مروان لأنس بن مالك رضي الله عنه :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج ، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك ، فإن عاد إلى مثلها اكتب إلي بذلك أنزل به عقوبتي وتحسن لك معونتي والسلام ، ثم خرج إسماعيل من عند أنس فدخل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحبا برجل أحب لقاؤك في غير ما أتيتك به فتغير لون الحجاج وخاف وقال: بم أتيتني به؟ قال : فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضبًا ومنك بعدًا ، قال : فاستوى الحجاج جالسًا مرعوبا فرمى إليه إسماعيل بالخطاب الذي أرسله له عبد الملك بن مروان فجعل الحجاج ينظر فيه مرة بعد مرة وينظر إلى إسماعيل مرة أخرى فلما فضه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه ، فقال له : إسماعيل : لا تعجل ! فقال الحجاج: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة ؟!

وكان خطاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج :

« أما بعد : فإنك عبد قد طمت بك الأمور فسموت بها وعدوت طورك وجاوزت قدرك وركبت داهية إدا . . . فعلنك الله من عبد أخفش العينين منفوص الجاعرتين . أنسيت مكاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل يابن المستفرية بالعجم الزبيب ، والله لأغمرنك غمر الليث الثعلب ، والصقر الأرنب ، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا فلم تقبل له إحسانه ولم تتجاوز له عن إساءته جرأة منك على الرب عز وجل واستخفافا منك بالعهد ، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلا خدم عزير بن عزرى وعيسى بن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته وأحبته، بل لو رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حواري المسيح لعظموه وأكرموه فكيف؟

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٩ ، ص ١٤٢ .

وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين ، يطلعه على سره ويشاوره في أمره ثم مع هذا بقية من بقايا أصحابه ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن له أطوع من خفه ونعله وإلا أتاك مني سهم يكل حتف قاض ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون» (١) .

ولما مات الحجاج سـجد الحسن البصري شكرا لله وقال : « اللهم أمـتَّه ، فأذهب عنا سنَّته » .

ولما أُخبر إبراهيم النخعي بموته بكى من شدة الفرح .

ولما مات أنشأت جارية تقول :

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا والبوم يأمننا من كان يخشانا

بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت الحجـاج إلى صاحب اليمن وكتب إليه : أما بعد: فإني قـد بعثت بآل بيت الحـجاج وهم شر بيت فـي العمل ففـرقهم في العـمل على قدر هوانهم على الله وعلينا وعليك السلام وقال ابن كثير : إنما نفاهم .

ولما ولي سليمان بن عبد الملك الخلافـة أطلق في غداه واحدة أحدًا وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج وقيل : إنه لبث في سجنه ثمانون ألفا منهم ثلاثون ألف امرأة.

وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفا .

وكـان الحجـاج ـ لعنه الله ـ إذا أوتي بالرجل ـ يعني ممن خـالفه ـ قـال له : أكفـرت بخروجك على ، فـإن قال : نعم خلى سبيله ، فـقال لسعيـد بن جبير : أكـفرت ؟ قال سعيد: لا ، قال : اختر أيَّ قتله أقتلك ، قال : اختر أنت فإن القصاص أمامك .

ورأى الحـسن البصـري الحجـاج في منامـه : فقـال له : أنت الحـجاج ؟ قـال : أنا الحجاج، قال : ما فعل الله بك؟ قال : قتلت بكل قتيل قتلته (١) .

أبو مسلم الخراساني :

الذي قتل من عـباد الله ما قتل وكـان فاتكا سفـاكا للدماء سطر بدماء الأبرياء سـجلا أسوداً عنوانه الظلم البين والقتل بالظنة ولا إرفاع الرحمة ولا إقالة للعثرة فقتل شر قتله .

---

(١) الجزاء من جنس العمل جـ ٢ ص ١٨٤ .

ذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستمائة ألف صبرا زياد على مَن قتل بغير ذلك. وسئل عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيرا من أحد ، ولكن الحجاج كان شرا منه .

كتب إليه المنصور : احذر البغي أبا مسلم فإنه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم واحذر أن تكون سنة في الذين خلوا من قبلك ومثله من يأتي بعدك .

وكتب الحجاج إلى المنصور : إن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالا فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأدفع الرحمة ولا أقيل العثرة فوترت أهل الدنيا في طاعتكم وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم ، واستنقذني بالتوبة فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفورا وإن يعاقبني فبذنوبي ، وما ربك بظلام للعبيد .

وكتب إليه المنصور : أما بعد ، أيها المجرم العاصي ، إنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركا ولأغواهما راكبا تقتل قتل الفراعنة وتبطش بطش الجبابرة وتحكم بالجور حكم المفسدين وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين .

ولما أدخلوه على المنصور جعل يعاتبه في أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيدا حتى قال له : فلم قتلت سليمان بن كثير ، وإبراهيم بن ميمون ،وفلانا وفلانا؟ قال : لأنهم عصوني وخالفوا أمري . فغضب عند ذلك المنصور وقال : ويحك! أنت تقتل إذا عُصيت وأنا لا أقتلك وقد عصيتني؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله ، فتبادروا إليه ليقتلوه ، فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك ، فقال : وأي عدو لي أعدى منك؟ ثم زجرهم المنصور ، فقطعوه قطعا ثم ألقي في دجله »(١) .

ويروى أن المنصور لما قتله وقف عليه فقال : رحمك الله أبا مسلم بايعتنا فبايعناك وعاهدتنا وعاهدناك ووفيت لنا فوفينا لك وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ، ص ٧٤ ـ ٧٨ .

الأيام إلا قتلناه فخرجت علينا فقتلناك وحكمنا عليك حكمك على نفسك لنا .

ويقال : أن المنصور قال : الحمد لله الذي أرانا يومك يا عدو الله !

قال ابن جرير : وقال المنصور عند ذلك :

زعمت أن الدين لا يُقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم

سُقيت كأسا كنت تسقى بها أمَرَّ في الحلق من العلقَم

وفي ذلك يقول أبو دلامة :

أبا مسلم ما غيَّر الله نعــــمة على عبده حتى يغيرها العبـــدُ

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحن عليك بما خوفتني الأسد الوردُ

ثم إن المنصور خطب في الناس بعد قتل أبي مسلم ، فقال : يا أيها الناس لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر فتحل بكم النقم ، وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه فنكث وغدر وفجر وكفر فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ثم أمر المنصور بمصادرة جميع أمواله وحواصله وضياعه[1] .

مسلم بن عقبة :

مسلم بن عقبة المزني الذي سماه السلف : مسرف بن عقبة الذي أرهب أهل المدينة وقتل منها خلقا عظيما سنة ٦٣ هـ في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

ذلك أن أهل المدينة لما خلعوا بيعة يزيد بن معاوية وولوا عليهم : على قريش عبد الله بن مطيع وعلى الأنصار : عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر فانتدب يزيد بن معاوية : مسلم بن عقبة المزني وأرسل معه عشرة آلاف فارس وقيل : اثني عشر ألفا وخمسة عشر ألفا رجل، فقال النعمان بن بشير : يا أمير المؤمنين دلني عليهم أكفك . وكان النعمان أخا عبد الله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رواحة ، فقال يزيد : لا ليس لهم إلا هذا الغشمة ـ الظالم ـ والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم وعفوي عنهم مرة بعد مرة ـ فقال النعمان : يا أمير المؤمنين أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ وقال له عبد الله بن جعفر : أرأيت

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٧٩ .

إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم ؟ قال : إن فعلوا فلا سبيل عليهم ، وقال يزيد لمسلم بن عقبة أدع القوم ثلاثًا فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكف عنهم وإلا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثًا ثم أكفف عن الناس وقد كان فقد اقتتلوا قتالا شديدًا ثم انهزم أهل المدينة إليها وقد قتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان منهم عبد الله بن مطيع وبنون له سبعة بين يديه وعبد الله بن حنظلة الغسيل وأخوه لأمه محمد بن ثابت بن شماس ومحمد بن عمرو بن حزم رقد مرّ به مروان وهو مجندل فقال : رحمك الله فكم من سارية رأيتك تطيل عندها القيام والسجود ثم أباح مسلم بن عقبة ـ قبحه الله من شيخ سوء ما أجهله ـ المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد ـ لا جزاه الله خيرا . . وقتل خلقا من أشرافها وقرائها ، وانتهب أموالاً كثيرة منها ووقع شر عظيم وفساد عريض فكان ممن قتل بين يديه صبرًا : معقل بن سنان ، ونتف لحية عمرو بن عثمان بن عفان وأباح المدينة ثلاثة أيام يقتلون من وجدوا من الناس ويأخذون الأموال فأرسلت إليه سعدى بنت عوف المرية تقول له أنا بنت عمك فمر أصحابك ألا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا فقال لأصحابه لا تبدءوا إلا بأخذ إبلها أولاً !! وجاءته امرأة فقالت : أنا مولاتك وإني في الأسارى فقال : عجلوا بها ابنها فضربت عنقه وقال : أعطوها رأسه أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي مع أبنك ؟ ووقعوا على النساء حتى قيل : إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زواج فالله أعلم .

قال هشام بن حسان : ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعه الحرة من غير زواج وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم جابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري [٢].

وجيء بسعيد بن المسيب فقال له مسلم : بايع على سيرة أبي بكروعمر ، فأمر بضرب عنقه فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله وسُئل الزهري كم كان عدد القتلى يوم الحرة؟ قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ووجوه الموالي وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف .

ولما قتل أهل الحرة هتف هاتف بمكة على أبي قبيس مساء تلك الليلة وابن الزبير جالس ، يسمع :

(١)بن كثير : البداية والنهاية جـ ٨ ، ص ٢٠٨ ـ ٢١٢ .

والصائمون القانتون أولو العبادة والصلاح
المهتدون المحسنون السابقون إلى الفلاح
ماذا بواقم والبقيع من المحاجحة الصباح
وبقاع يثرب ويحهن من النوادر والصياح
قُتل الخيار بنو النجار ذوي المهابة والسماح

فقال ابن الزبير يا هؤلاء قتل أصحابكم فإنا لله وإنا إليه راجعون ودخل مسلم بن عقبة المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم خول - خدام وعبيد - ليزيد بن معاوية ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء .

وسار مسلم بن عقبة المزني أول المحرم سنة أربع وستين إلى مكة قاصدًا قتال ابن الزبير فلما بلغ ثنية هرشا بعث إلى رؤوس الأجناد فجمعهم : فقال : إن أمير المؤمنين عهد إلى إن حدث بي حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السكوني ووالله لو كان الأمر إلى ما فعلت ثم دعا به فقال :انظر يا ابن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به ثم أمر إذا وصل مكة أن يناجز ابن الزبير قبل ثلاث ثم قال : اللهم إني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أحب إلي من قتل أهل المدينة وأجزى عندي في الآخرة ! وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقي ثم مات - قبحه الله - ودفن بالمسلك ، ثم أتبعه الله بيزيد بن معاوية فمات بعده في ربيع الأول لأربع عشرة خلت منه فما متعهما الله بشيء مما رجَوه وأملوه بل قهرهم القاهر فوق عباده وسلبهم الملك ونزعه منهم من ينزع الملك ممن يشاء(١) .

عن جعفر بن خارجة قال : خرج مسرف من المدينة يريد مكة وتعقبه أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة يسير وراء العسكر يومين أو ثلاثة ومات مسرف فدفن في ثنية المشلل وجاءها الخبر فانتهت إليه فنبشته ثم صلبته على ثنية المشلل(٢) .

قال ابن كثير : وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشًا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة - ثلاثة أيام وهذا خطأ كبير فاحش وقد وقع في هذه الأيام الثلاثة من المفاسد العظيمة في

(١) ابن كثير :البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
(٢) الجزاء من جنس العمل جـ ٢ ص ٢٧١ .

المدينة النبوية مالا يحد ولا يوصف مما لا يعلمه إلا الله عز وجل وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه من غير منازع فعاقبه الله بنقيض قصده وحال بينه وبين ما يشتهيه فقصمه الله قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

قال رسول الله ﷺ : « **لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع ـ ذاب ـ كما ينماع الملح في الماء** »(١) .

وقال ﷺ : « **من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبي** »(٢) .

وقال ﷺ : « **من أخاف أهل المدينة أخافه الله** »(٣) .

وقال ﷺ : « **من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء** »(٤) .

---

(١) البخاري .
(٢) أحمد .
(٣) ابن حبان .
(٤) مسلم .

المطلب الرابع

طول الأمل وطلب الخلود

المطلب الرابع

طول الأمل وطلب الخلود

طول الأمل في الدنيا من أكبر أماني الإنسان فلأنه طويل الأمل يظلم ويفعل المنكرات.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد حث الرسول ﷺ في غير ما حديث على قصر الأمل وتذكر الموت واعتبار الدنيا دار ممر لا دار مقر.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** »[(١)] .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه ، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده** »[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **بادروا بالأعمال سبعًا هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا أو غنى مطغيًا أو مرضا مفسدًا أو هرمًا مفندًا أو موتا مجهزًا أو الدجال فشر غائب ينتظر الساعة والساعة أدهى وأمر** »[(٣)] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أربعة من الشقاء جمود العين وقسوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا** »[(٤)] .

قال تعالى : ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الحجر : ٣] .

وقال علي رضي الله عنه : « إن أخوف ما أخاف عليكم : اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة » .

ويتولد من طول الأمل : الرغبة في الدنيا والنسيان للآخرة والقسوة في القلب كما قال تعالى : ﴿ **فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم** ﴾ [الحديد : ١٦] وقيل : من قصر أمله قل همه وتنور قلبه .

وكانت ماجدة القرشية تقول : بسطوا آمالهم فأضاعوا أعمالهم ، ولو نصبوا الآجال وطووا الآمال لخفت عليهم الأعمال .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : مر بنا رسول الله ﷺ أنا وأمي نُطَيِّنُ

(١) البخاري .
(٢) متفق عليه .
(٣) الترمذي .
(٤) البزار .

شيئًا فقال: « ما هذا ياعبد الله ؟» قلت: شيء نصلحه، قال : « الأمر أسرع من ذلك»(١) .

وقال ذو النون المصري : توسدوا الموت إذا نمتم واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم ، كونوا كأنكم لاحاجة لكم في الدنيا ولا بد لكم من الآخرة .

وقيل للربيع بن خيثم : كيف أصبحت يا أبا يزيد ؟ قال : أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا .

فحقيق على من كان الموت موعده والقبر مورده والحساب مشهده أن يقصر أمله وتعلو همته ويحسن عمله .

وقال داود الطائي : يا داود من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال أمله قصر عمله وكل ما هو آت قريب .

وقال الفضيل : إنما أمس مثل ، واليوم عمل ، وغدًا أمل .

وقال : ما أطال رجل الأمل إلا أساء العمل .

قصة عاد [طالبو الخلود]:

طلب قوم سيدنا هود عليه السلام الخلود في الدنيا راجين تحقيقه فقال لهم الله عز وجل على لسان نبيه هود عليه السلام :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٢٩] أي : أنكم تبنون بكل مرتفع علما تعبثون ببنيانه وتلعبون بالمارة وتسخرون منهم لأنكم تشرفون من هذا البناء المرتفع على الطريق وتتخذون الحصون المشيدة راجين من ذلك الخلود في الأرض .

وقد كانوا عربا يسكنون الأحقاف - وهي الجبال الرمل وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ [الفجر : ٦ - ٧] .

وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان بعد سيدنا نوح عليه السلام كما قال عز جل :﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ [الأعراف: ٦٩] .

(١) الترمذي وأبو داود .

وقد أعطاهـم الله عز وجل بسطة في الجسم وجعلهم أشـد زمانهم في الجسم وشدة البطش.

وأرسل الله إليهم نبـيه هود يدعوهم إلى التوحيـد وعبادة الله وحده فـأبوا ورفعوا راية الكفـر والعصيـان طالبين الخلود في الدنيـا على ما هم فـيه من فـساد وإفـساد في الأرض مسـتعـينين في ذلك بنعم الله عليهم التـي لم تعط لهم إلا لعبـادته وحده وتوحـيده فكان جزؤاهم الهلاك .

وبالرغم من أن هود عليه السلام قد ذكرهم بنعم الله عليهم فقال لهم : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾[الأعراف: ٦٩] وبدلاً من أن تكون نعم الله عليهم دافعًا لهم وسببا لشكر المنعم وتوحيده ولكنهم عبدوا النعمة وكفروا المنعم : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[فصلت : ١٥] .

وقد اجتهد هود عليه السلام في دعوة قومه للتوحيد وعدد لهم نعم الله عزوجل عليهم عسى أن يؤمنوا .

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الشعراء : ١٢٣ ـ ١٣٥] .

وقال تعـالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف : ٦٩] .

إلا أنهم كفروا المنعـم وعبدوا النعمة ومـا زادهم التذكير بنعم الله إلا نفـورًا واستكبارًا وقالوا لهود عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[الأعراف : ٧٠] .

قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[هود : ٥٣] .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٦ ـ ١٣٨] .

وقد أوضح لهم هود عليه السلام أنه في دعوته لهم إلى التوحيد وعبادة الله لا يحتاج ولا يطلب من وراءها مالاً أو حجراً فقال لهم : ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود : ٥١] .

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ .... ﴾ [الأعراف : ٦٨ ـ ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٧] .

ولم يكفروا بنعمة الله فقط بل أنهم تعرضوا لهود عليه السلام بالتنقص والاستهزاء زيادة وإمعانا في الكفر والضلال .

قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦ ـ ٦٧] .

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود : ٥٣ ـ ٥٤] .

فكانوا أسوأ الناس سيرة وأسوأهم سريرة ﴿وجحدوا آيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ فعبدوا الأصنام من دون الله وكانوا أول من عبدها بعد قوم نوح عليه السلام وكانت الأصنام التي عبدوها من دون الله ثلاثة: صمداً وصموداً وهراً (١) .

لما تجبر قوم عاد في ظل ضلالهم حين أملى الأمل وطول البقاء وزوى ذكر زوالهم ومروا في مشارع عذاب الملاهي ناسين مر عذابها رافلين في حلل الغفلة عن المنية وآدابها فكان لابد من عذاب يفيقهم من سكرتهم وحتى يكونوا آية وعبرة لمن يعتبر . فأمسك الله عز وجل عنهم المطر ثلاث سنين حتى أجهدهم فدعوا الله أن ينزل عليهم المطر فساق الله إليهم سحابة سوداء فلما رأوها استبشروا وقالوا : هذا عارض ممطرنا : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ص ١٢٥ .

مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤ ـ ٢٥] .

أي : أنها تدمر كل شيء مرت به واعتزل هود عليه السلام في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يبين عليهم الخلود ويلذ الأنفس وأنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة [١].

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨] .

والريح الصرصر العاتية هي شديدة البرد وقيل شديدة الصوت لتناسب عتوهم .

والعاتية : التي عتت عن الطاعة فعتت على قوم عاد فلم يقدروا على ردها بل أهلكتهم .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ .

أي : كوامل متتابعات .

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ أي : أعجاز النخل الخاوية التي لا رؤوس لها لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس وجعلهم كأعجاز النخل الخاوية ذات أصول وجذوع خاوية فارغة تآكلت أجوافها [٢].

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾[الحاقة: ٨] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[القمر : ١٩ ـ ٢٠] .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤١ ـ ٤٢] .

فهذه الريح العقيم لم تنبت زرعًا ولم تسوت ضرعًا ولم تلقح شجرًا وكانت وبالاً على

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .
(٢) ابن كثير : نفس المصدر والصفحة .

قوم عاد : ﴿ وقد خاب من افترى﴾ .

ولذلك كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح تغير لونه فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ إذا رأى غيمًا وريحًا عرف ذلك في وجهه. قلت : يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ فقال : « **يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، قد عذب نوح بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا** » (١) .

وكان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال : « **اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به** » (٢) .

قلت :

فأين الذين قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ؟.

وأين الذين قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ؟.

وأين الذين قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ؟.

الجواب : ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ .

وكان أبوالدرداء يقول لأهل دمشق : « ألا تستحيون ؟ تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون مالا تبلغون ، قد كان من قبلكم يجمعون فيوعون ، ويأملون فيطيلون ويبنون فيوثقون ، فأصبح جمعهم بورًا وأملهم غرورًا وبيوتهم قبورًا ، هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالاً وأولادًا فمن يشتري مني تركه آل عاد بدرهمين ؟

(١) مسلم وأحمد .
(٢) مسلم.

قبيلة ثمود :

وهي قبيلة مشـهورة يقال لهم : ثمود باسم جدهم ثمود أخي جـديس وهما ابنا عاثر ابن آرم بن سام بن نوح عليه السلام .

وكانوا عربًا من العـاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك وقـد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين وكانوا بعـد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك .

وكانوا مـن أطول الناس أجسـادًا وأعمارًا حـتى قيل: إن الفـرد منهم كان يعـيش من الثلاثمائة عام إلى الألف حتى كان الواحد منهم يبني بيتا محكمًا فيهدم البيت قبل أن يموت فلما رأوا ذلك وما هم عليه من قوة وجبروت عمدوا إلى الجبال فنحتوا منها بيوتًا وقصورا: ﴿ وَثَمُـودَ الَّذِينَ جَـابُوا الصَّـخْـرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر : ٩] ، وقال تعـالى : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٩] .

بعث الله منهم رجلاً ، وهو صالح عبد الله ورسـوله فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل وحـده وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشـركـوا به شيـئًا فـآمنت به طائفـة منهم وكفـر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وقـد بلغت قلوبهم من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا يستشعر بشاشة قول نبي الله صالح : ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود : ٦٢] .

قال ابن كثير : ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم فجاء رسول الله صالح عليـه السلام فـدعاهم إلى الله وذكـرهم وحذرهم ووعظهم وأمـرهم فقـالوا له : إنْ أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيهـا وأن تكون طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السـلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجـه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قـالوا : نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى مصلاه فـصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجـيبهم إلى طلبهم فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي

طلبوا أو على الصفة التي نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلاً وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعًا فآمن منهم كثير واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال ﴿فظلموا بها﴾ [الإسراء : ٥٩] وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم فهمّ بالإسلام فنهاه المشركون فمال إليهم وفي هذا يقول رجل من المسلمين يقال له : مهرش بن غنمة بن الدميل رحمه الله :

وكانت عصبة من آل عمرو … إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعا … فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزًا … وماعدلوا في صاحبهم ذوابا
ولكن الغداة من آل حجر … تولوا بعدد شددهم ذئابًا

وقال لهم صالح عليه السلام :﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ [هود : ٦٤].

وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا قال: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ [الشعراء: ١٥٥] وقال تعالى ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾ [القمر : ٢٨] فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملأهم واتفق رأيهم على أن يعقروا الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم[1] .

قال قتادة : بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان .

قال ابن كثير : وهذا هو الظاهر لأن الله تعالى يقول ﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾ [الشمس: ١٤] وقال ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾ [الإسراء : ٥٩] ،و قال ﴿فعقروا الناقة﴾ [الأعراف : ٧٧] فأسندوا ذلك إلى مجموع القبيلة ، فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ .

قال ابن كثير : ذكر الإمام جرير رضي الله عنه وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة أن امرأة منهم يقال لها : عنيزة بنت غنم بن مجلز وتكنى أم غنم كانت عجوز كافرة وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانت لها بنات حسان ومال جزيل وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود وامرأة أخرى يقال لها : صدقة بنت المحيا بن زهير بن المختار ذات حسب وجمال وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة ، فدعت صدقة رجلاً يقال له : الحباب وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له : مصدع بن مهرج بن المحيا فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جندع وكان رجلاً أحمر أزرق قصير يزعمون أنه ولد زانية وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه ـ وهو سالف ـ وإنما هو رجل يقال له : صهياد ولكن ولد على فراش سالف وقالت له : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة ، فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستفزا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط وهم الذين قال الله تعالى : ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾ [النمل : ٤٨] وكانوا رؤوساء في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة فطاوعتهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها لقدار وذمرته ـ حثته ـ فشد على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها ـ قطعه ـ فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها ـ ولدها ـ ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها ـ ولدها ـ حتى أتى جبلاً منيعًا فصعدا على صخرة فيه ورغا ، ويقال : إنه رغا ثلاث مرات وأنه دخل في صخرة فغاب فيها ويقال : بل اتبعوه فعقروه مع أمه والله أعلم(١) .

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة بلغ الخبر صالحًا عليه السلام فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال : ﴿ **تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾ [هود : ٦٥] .

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء فلما أمسى هؤلاء التسعة الرهط عزموا على قتل صالح

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١ ص ١٣٧ .

وقالوا : إن كان صادقًا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته : **﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [النمل: ٤٩ - ٥١] .

فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه وجاءوا من الليل ليقتلوا نبي الله صالحًا أرسل الله سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله ـ عليهم حجارة فرضختهم سلفًا وتعجيلاً قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس ـ وهو اليوم الأول من أيام النظرة ـ ووجوههم مصفرة وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل ـ وهو الجمعة ـ ووجوههم محمرة وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع ـ وهو يوم السبت ـ ووجوههم مسودة ، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينظرون نقمة الله وعذابه ـ عياذا بالله من ذلك ـ لا يدرون ماذا يفعل بهم؟ ولا كيف يأتيهم العذاب؟ وأشرقت الشمس فجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت الأنفس في ساعة واحدة : **﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾** [الأعراف: ٧٨] صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى ، قالوا : إلا جارية كانت مقعدة ـ واسمها : كلبة ابنة السَّلق ويقال لها : الزريقة ، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حيًا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت وعن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: « **لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعقوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحدًا كان في حرم الله** » فقالوا : من هو يا رسول الله؟ قال : « **أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه** » (١) .

عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ : « **ألا أحدثكم بأشقى الناس؟ رجلين : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا عليٍّ على هذه حتى يبل منها هذه** » (٢) .

---

(١) أحمد .

(٢) الطبراني .

﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ [القمر : ٢٩] .

وقال تعالى :﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ﴾ [القمر : ٣١].

قال الشنقيـطي : وأما ثمود فأخذوا بالصـيحة الطاغيـة لأنهم نادوا صاحبهم فـتعاطى فعقر فلما كان نداؤهم صاحبهم سببا في عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية(٢) .

قال تعالى :﴿ فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر (٢٤) أؤلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾ [القمر : ٢٤ ـ ٢٥] .

إنها الكبرياء الجـوفاء التي لا تنظر إلى حقيقـة الدعوة ولكن إلى الداعية فتـستكبر من اتباع فرد من البشر مخافة أن يكون في اتبـاعها له إيثار وله تعظيم ومن ثم يقولون لأنفسهم ﴿ أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ﴾ [القمر : ٢٤] أي : لو وقع منا هذا الأمر المستنكر وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبـعوا الهدى وأن يحسبوا أنفسهم في سُعُرٍ ـ لا سعير واحد ـ إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان .

قال صاحب المنار : في عذاب ثمود ومدين من سورة الأعراف: إنهم أخذتهم الرجفة كما في آيتي (٧٧ ـ ٩٠) .

في مدين من سورة العنكبوت الآية (٣٧)﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ .

وفي فصلت في ثمود :﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ [فصلت : ١٧] .

وفي سورة الذاريات :﴿ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ [الذاريات : ٤٤] .

والرجفـة : هي الهزة والاضطرابة الشديدة وهـي تصدق باضطراب أبدانهم وأفئـدتهم كأرضهم فالجامع من هذه الألفاظ أن الله ـ تعالى ـ أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد ، فرجفوا أو رجفت أرضهم وزلزلت من شدتها وخروا ميتين .

قال الرازي: زعم بعـض الملحدين أن ألفاظ التنـزيل في حكاية هذه الواقعـة اختلفت وهي الرجفة والطاغية والصيحة.

---

(١) الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ١٨٢ .

والجواب : إن الطاغيـة اسم لكل ما تجاوز حده ، سـواء أكان حيوانًا أو غيـر الحيوان وألحق الهاء به للمبالغة ، ويقال : طغى طغيانا ، وهو طاغ وطاغية وقال في غير الحيوان : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ [الحاقة: ١١] أي : غلب وتجاوز الحد .

وأما الرجفة : فهي الزلزلة في الأرض وهي حركة خارجة عن المعتاد فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها .

وأما الصيحة : فالغالب أن الزلزلة لاتقل عن الصيحة العظيمة الهائلة .

وأما الصاعـقة : فالغالب أنها الزلزلة وكذلك الزجـرة قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤] فبطل ما زعمه ذلك البعض .

قال القاسمي : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف:٧٨] أي : الصيحة التي يحصل منها الزلزل الشـديد ، بل بدل صـوت الـناق عند عـقـرها وبدل حـركـتـهـا عند نزوع الروح ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨] أي : سـاقطين على وجوههم هامـدين لا يتحركون ميتين بدل موت الناق وسقوطها .

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] .

إنه التبجح الذي يصاحب المعصية ويعبر عن عصيانهم بقوله : ﴿ وَعَتَوْا ﴾ لإبراز سمة التبجح فـيها وليصـدر الشعور النفس المصاحب لهـا والذي يعبر عنه كذلـك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار النذير .

ولا يستأني السياق في إعـلان الخاتمة ولا يفصل كذلك : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨] .

والرجفة والجثوم جـزاء مقابل العتو والتبجح فـالرجفة يصاحبها الفزع والجـثوم مشهد العجز عن الحراك ومـا أجدر العاتي أن يرتجف وما أجدر المعتدي أن يعجـز جزاءًا وفاقًا في المصير وفي التـعبير عن هذا المصير بالتـصوير ويدعهم السياق على هيـئتهم : يرسم لنا مشهـد صالح الذي كذبوه وتحدوه : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩] إنه الإشهاد على أمـانة التبليغ والنصح والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب .

وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين .

قال صاحب تفسير الظلال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [القمر : ٣١] وإن كانت في موضع آخر في سورة فصلت توصف بأنها صاعقة :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١٣] وقد تكون كلمة صاعقة وصفًا للصيحة فهي صيحة صاعقة وقد تكون تعبيرًا عن حقيقتها فتكون الصيحة والصاعقة شيئًا واحدًا وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة أو تكون الصاعقة أثرًا من آثار الصيحة .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة فعلت بهم ما فعلت مما جعلهم ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر :٣١] والمحتظر صانع الحظيرة وهو يصنعها من أعواد جافة ، فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تتيبس وتتحطم وتصبح هشيمًا أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشيمًا تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الخامدة .

وهو مشهد مفجع مفزع ، يعرض ردًا على التعالي والتكبر فإذا المتعالون المتكبرون هشيم، وهشيم مهين كهشيم المحتظر .

وقال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥٠ ـ ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الحجر : ٨٢ ـ ٨٤] .

هذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقى لهم مما جمعوا مما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئًا يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف . هذه اللمحة تلمس القلب البشرى لمسة عنيفة فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوته في صلب الصخور وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من كل وقاية ضائعة وإذا كل حصن موهوب ، صيحة تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين(١) .

(١) الظلال ، جـ ٤ ص ٢١٥١ .

اعتبروا إخواني بهؤلاء الهالكين وانظروا سوء تدبير الخاسرين لا الناقة اعتبروا ولا لتعويضهم اللبن شكروا وعتوا عن النعم وبطروا وعموا عن الكرم فما نظروا وأوعدوا بالعذاب فما حذروا كلما رأوا آية من الآيات كفروا.

الطبع الخبيث لا يتغير والمقدر ضلاله لا يزال يتحير خرجت إليهم ناقة من أحسن النَّعم ودرَّ لبنها لهم فتواترت النعم فكفروا وما شكروا فأقبلت النقم.

أعاذنا الله وإياكم من الكفران وحفظنا من موجبات الخسران إنه إذا لطف صان[١] .

(١) الجزاء من جنس العمل ، جـ ١ ، ص ١٨٧ .

المطلب الخامس

اتباع الشهوات

المطلب الخامس

اتباع الشهوات

من أكبر غايات الظالمين في الدنيا هي اتباع الشهوات والإغراق فيها ويجعلون من أهواءهم وشهواتهم إلها يعبد من دون الله .

قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾[الجاثية : ٢٣] .

قال ابن عباس : ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان والمعنى هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه ولا يعمل بكتاب الله فكأنه يعبد هواه .

وقال تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾[المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[ص :٢٦] .

ولذلك استعاذ النبي ﷺ منه بقوله : « **اللهم إني أعوذ بك من هوى مطاع وشح متبع** » .

وذلك لأن كل معصية سببها هوى النفس فهو يقود إلى النار أعاذنا الله منه .

قال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾[الإسراء: ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[الحديد : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[آل عمران :١٤] .

وقال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا (٤٥) المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾[الكهف :٤٥ - ٤٦] .

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قضى نهمته في الدنيا حيل بينه وبين شهوته في الآخرة ومن مد عينيه إلى زينة المترفين كان مهينًا في ملكوت السموات ومن صبر على القوت الشديد صبرًا جميلاً أسكنه الله من الفردوس حيث شاء**»(١) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « **لا يصيب عبد من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان كريما عليه** »(٢) .

والهوى مركب ذميم يسير بك في ظلمات الفتن ومرتع وخيم يقعدك في مواطن المحن فلا تحملنك شهوة النفس على ركوب المذمات والقعود في مواطن الخطيئات فبالشهوات ضل من ضل وبالإغراق فيها زل من زل فحب الشهوات رأس الخطايا والسيئات والاقتصار منها أم الطاعات وأسُّ القُربات ورأس المنجيات .

قال تعالى :﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل : ٩٦] .

وقال تعالى :﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى** ﴾ [النساء : ٧٧] .

وقال تعالى :﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ [الأعلى : ١٦ - ١٧] .

وقال تعالى :﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه : ٣١] .

والقرآن الكريم مملوء بالترهيب من اتباع الشهوات والأخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فناءها والترغيب في الآخرة والإخبار لشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيرًا قصر همه عن الشهوات وأقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الشهوات في الدنيا والآخرة ويؤثر منها ما هو أولى بالإيثار .

وكان رسول الله ﷺ أقصر الناس وأبعدهم عن اتباع الشهوات وقد عرض الله سبحانه وتعالى عليه الدنيا وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق فلم يردها ولم يخترها ولو

(١) الطبراني .
(٢) ابن أبي الدنيا .

آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذه منها بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش بها وقد قال رسول الله ﷺ ذات يوم لعائشة : « **والله لو شئت لأجري الله معي جبال الذهب والفضة** »(١) .

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها وقال : « **بل أجوع يوما وأشبع يوما** ».

وقد امتلأت الكتب بقصص الدين انغلقوا على ملذاتهم وشهواتهم وكان نهايتهم سيئة كما كانت حياتهم بعيدة عن الله عز وجل.

قوم لوط :

وقوم لوط هؤلاء هم سكان مدينة سدوم وما حولها من القرى في الأردن بطريق الشام مكان البحر الميت الآن .

وكانوا أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يُرد مالم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها الأبناء من العالمين ولهذا ذكر الله قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى : ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأعراف : ٨٠ ـ ٨٤] .

قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ**

(١) رواه أحمد .

مقطوع مصبحين ﴾ إلى أن قال تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين (٧٣) فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل (٧٤) إن في ذلك لآيات للمتوسمين (٧٥) وإنها لبسبيل مقيم ﴾ [الحجر : ٦١ ـ ٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر ﴾ [القمر : ٣٤ ـ ٣٩] .

قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم : جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطًا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس فخشى إن لم يضيفهم لضيفهم غيره وحسبهم بشرًا من الناس : ﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ﴾ [هود : ٧٧] .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه وذلك لما نعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم في غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه ألا يضيف أحدًا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه ، وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو في أرض يعمل فيها فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم وجعل يعرّض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها فقال لهم فيما قال : يا هؤلاء لا أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم يئس قليلاً ثم أعاد عليهم ذلك حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أُمروا ألا يهلوكهم حتى يشهد عليهم نبيهم (١).

وانظر كيف يصور القرآن الكريم مجيء الظالمين إلى بيت نبيهم لوط؟ قال تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ [الحجر : ٦٧] .

لقد تسامعوا أن في بيت لوط شبابا صباح الوجوه ففرحوا أن هناك صيدًا والتعبير على هذا النحو يكشف مدى التفاهة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة فيجيئون جماعة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١ ص ١٨٠ ـ ١٨٩ .

يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر - فوق المنكر - شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع فعندئذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه أو يتخفى بمرضه ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية بل حين تكون شرعية وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ويتجمهرون لتحصيلها ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير .

وفي موقف آخر يقول الله تعالى :﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٧٨] أي لوط ما يشبه الحمى في أجساد المندفعين إلى داره يهدونه في ضيفه وكرامته قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ٣٦ - ٣٧] بلغ بهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه من ضيفه - من الملائكة - قد حسبوهم غلمانا صباحًا فهاج سعارهم الشاذ الملوث القذر وساوروا لوطًا يريدون الاعتداء المنكر على ضيفه غير محتشمين ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي أنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض .

ولقد حاول نبي الله لوط أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال :﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود : ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم - وهن بناته شرعًا ، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد وهو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس ومحمد بن إسحاق وقتادة وهو الصواب - أطهر بكل المعاني الطهر : النفس والحس فهن يلبين الفطرة النظيفة ويقرن كذلك مشاعر نظيفة : نظافة فطرية ونظافة أخلاقية ودينية ثم هن أطهر حسيًا حين جعلها الله بقدرته للحياة الناشئة مكمنا كذلك طاهرًا نظيفًا﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ [هود : ٧٨] قالها يلتمس نخوتهم وتقاليد البدو في إكرام الضيف ، وقف يستثير النخوة الآدمية وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يستجاش ولكنه في كربة وشدته ويحاول ما يستطيع .

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] فالقضية قضية رشد وسفه إلى جوار أنها قضية فطرة ودين مروءة ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المحرفة المريضة ولا القلوب الميتة الآسنة

ولا العقول المريضة المأفونة وظلت الفورة المريضة في اندفاعها المحموم .

وبدلاً من أن يثير هـذا في نفوسهم رواسب المروءة والحياء إذا هم يتـبجحون فـيؤنبون لوطًا على استضافة الرجال كأنما هو الجاني الذي هيـأ لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعًا !!

﴿ **قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾ [هود : ٧٩] وهي إشادة خبيثة إلى العمل الخبيث .

وأُسقط في يد لوط وأحس بالضعف وهو غريب بين القـوم نازح إليهم من بعـيد لا عشيرة له تحميه ﴿ **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾ [هود : ٨٠] .

وغاب عن لوط فـي كربته وشـدته أن يأوي إلى ركن شديد ركن الله الذي لا يـتخلى عن أوليـائه كمـا قال رسـول الله ﷺ : « **رحـمـة الله على لوط لقـد كـان يأوي إلى ركن شديد**»[1] .

قال ابن كثيـر : ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطا عليه السـلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يردمـون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وذكروا أن جـبريل عليه السلام خرج عليـهم فضرب وجوههم خفـقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قال : أنها غارت بالـكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحـسسون الحيطان ويتـوعدون رسول الرحمـن ويقولون : إذا كان الغد كـان لنا وله شأن فتـقدمت الملائكة إلى لوط آمريـن له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ولا يـلتفت منكم أحد عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه إلا امرأتك سيصيبها ما أصابهم .

فلما جاء الأوان اقتلعهن جبريل بطرف جـناحه من قرارهن وكن سبع مدن ـ بمن فيهن من الأمم ، فقالوا : إنهم كانوا أربعـمائة نسمة ، وقيل : أربعة آلاف نسمـة وما معهم من الحيـوانات وما يتبع المدن من الأراضي والأمـاكـن والمعتمـلات فرفع الجمـيع حتى بلغ بهن عنان السمـاء حتى سمعت الملائكة أصـوات ديكتهم ونباح كـلابهم ثم قلبها عليهم فـجعل عاليها سافلها ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ** ﴾ الحجر : ٧٤] وهو الشديد الصلب

(١) الجزاء من جنس العمل ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

القوى ﴿ مَنضُودٍ ﴾ [هود : ٨٢] أي : يتبع بعضها بعضًا في نزولها عليهم من السماء ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ [هود : ٨٣] يعني : معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه .

قال تعالى :﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] .

تهكموا منه بالتطهر من هذا الرجس القذر وقد يكون إنكارًا عليه أن يسمى هذا تطهرًا فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة وقد يكون ضيقًا بالطهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ !!

لما عميت بصيرتهم أعمى جبريل أبصارهم ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر : ٢٧] .

ولما قلبوا الفطرة قلب الله قراهم : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود : ٨٢، والحجر : ٧٤] .

ولكونهم قلبوا الأوضاع إتيان الذكور دون الإناث فكان قلب الله عليهم قراهم والعلم عند الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ [النجم : ٥٣] أي : المنقلبة أهوى بها منكسة عاليها سافلها .

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود : ٨٢] .

وهي صورة للتدمير الكامل الذي يطلب كل شيء يغير المعالم ويمحوها وهذا القلب وجَعْلُ عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان بل أحط من الحيوان فالحيوان واقف ملتزم عند فطرة الحيوان .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل : ٥٨] .

يقول صاحب تفسير الظلال : ولكننا نلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر وهو الماء المحي المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف في غير ما جعل له وهو أن يكون مادة حياة وخصب والله أعلم بقوله ومراده وأعلم بسننه وتدبيره إن هو إلا رأي أراه في هذا التدبير وقد أمطروا مطرًا مهلكًا مع ما صاحبه من عواصف ، ترى كان هذا المطر

المغرق والماء الدافق لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه والوحل الذي عاشوا وما توافيه[١] .

قال تعالى :﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود: ٨٢] .

حجارة ملوثة بالطين وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام .

﴿ مَنضُودٍ ﴾ [هود : ٨٢] متراكم متتابع مثل تتابعهم على بيت لوط .

﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ [هود : ٨٣] كما تسوم الماشـية أي تربي وتطلق بكثرة فكأنما هذه الحجارة مرباة مطلقه لتنموا وتتكاثر لوقت الحاجة .

قال الشنقيطي : السجيل هو الطين الشديد القوي يصدق ذلك ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات : ٣٣] وقال الراغب : حجر وطين مختلط﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : ٧٦] .

من نظر بعين الفراسة والتوسـم فيهم كيف غيَّر الله تلك البلاد وأهلهـا؟ وكيف جعلها بعدما كانت آهلة عامرة هالكه غامرة وجعل مكانها بحيرة منتنة؟ .

يقول ابن كثير : لما أعرضوا عـن الطهارة : جعلَ الله مكَانَ تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولابما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائهـا لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعـالى وعظمته وعزته في انتـقامه ممن خالف أمـره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه فناسبت نتانة البحيرة نتهم[٢] .

قصص نهاية متبعي الشهوات :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله قال : قال عبد العزيز بن أبي رواد : حضرت رجلاً عند الموت يلقن الشـهادة : لا إله إلا الله فقال في آخـر ما قال : هو كافـر بما تقول ومات على ذلك . قال : فسألت عنه فإذا هو مدمن خـمر . وكان عبد العزيز يقول :اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته .

(١) تفسير في ظلال القرآن ، جـ ٣ ، ص ١٣١٦ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ص ١٨٠ ، ١٨٩ .

قال الشيخ حمود القويجري - حفظه الله تعالى - وحدثني الثقة من إخواننا في الله تعالى قال : مر بنا مسافر مريض فأقام عندنا أياما ثم احتضر فجعلت أوجهه إلى القبلة وكلما وجهته إليها صرف عنها في الحال فعلت ذلك مراراً وفي آخر الأمر صعب على توجيهه إلى القبلة وجعلت ألوي رأسه بجهدي لأوجهه إليها فلا يتوجه فتركته على حاله وخرجت روحه ووجهه إلى غير القبلة فجعلت أتعجب من شأنه. ثم إني فتشت متاعه فوجدت فيه صرة من تبغ وآلته التي يشرب بها الدخان وقداحته.

وحدث بعض المشايخ : أنهم أثناء سفرهم من مكة إلى المدينة وكان معهم رجل من أهل قطر كثير الصلاة وأفعال الخير إلا أنه كان يشرب الدخان ، قالوا : فمات في الطريق فصرف عن القبلة وكلما وجهناه إلى القبلة صرف عنها .

وهاهم أربعة من الشباب كانوا يعملون في دائرة واحدة مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها وبينما هم في ذات يوم جالسين إذا سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها عقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التي حددوها وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون ومر عليهم أكثر من أسبوع في تلك البلاد وهم بين زنا وخمور وفعال لا ترضى الرحمن بينما هم في ليلة من الليالي وفي ساعة متأخرة من الليل يجاهرون الله تعالى المعصية والفجور وبينما هم في غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعة يسقط مغشيًا عليه فهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم في تلك الليلة الحمراء ، يقول له : يا أخي قل لا إله إلا الله فيرد الشاب - عياذا بالله - إليك عني ، زدني كأس الخمر وتعالى يا فلانة ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحالة السيئة .

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا يبكون وخرجوا من المرقص تائبين ، وجهزوا صاحبهم وعادوا به إلى بلاده محمولاً في تابوت ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد عياذا بالله .

وها هو شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى بانكوك للفسق والدعارة

وبينما كان في سكره وغيه ينتظر خليلته ـ وقد تأخرت عليه ـ فما هي إلا لحظات وحضرت وأقبلت عليه فلما رآها خر ساجدًا لها تعظيمًا وحبًا ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة فنعوذ بالله من سوء الخاتمة(١) .

(١) نقلا عن كتاب ١٠٠ صفحة من نهاية الظالمين ص ٢٦٧ .

المطلب السادس
الزوجة والأولاد

المطلب السادس
الزوجة والأولاد

اقتضت فطرة الله عز وجل أن تجنح النفس البشـرية للاستقرار والزواج والإنجاب لحفظ النوع وعبـاده الله عز وجل وخـلافـته فـي الأرض ولذا فقـد حث الإسـلام على الزواج والإنجاب ورعاية الأسرة.

قال تعالى :﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ [النساء : ٣] .

وقال تعالى :﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النساء : ٢٥] .

وقال تعالى :﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ [النور :٣٢] .

وقال تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم :] .

وقال تعالى :﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] .

وعن عـبد الله بن مـسعود رضي الله عـنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « **يا مـعشـر الشباب من استطاع منـكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحـصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** »(١) .

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **من أراد أن يلقى الله طاهرًا مطهرًا فليتزوج الحرائر** »(٢) .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « **أربع من سنن المرسلين الحناء والتعطر والسواك والنكاح** »(٣) .

(١) البخاري ومسلم .
(٢) ابن ماجه .
(٣) الترمذي .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « **ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله** »(١).

ـ الزوجة :

أي تكريم للمرأة أرفع من تكريم الإسلام ، حين يصور بيتها تصويرًا رفافا شفيفًا يشع منه التعاطف وترف فيه الظلال ويشيع فيه الندى ويفوح منه العبير !! أي تكريم للمرأة فوق أن يسمى الله سورة من كتابه ـ القرآن الكريم ـ باسم « النساء » وسورة أخرى باسم «مريم»!! أي تكريم أجل من أن القرآن كان ينزل في مخدع عائشة !! أي تكريم أغلى من أن ينزل الله قرآنًا في براءة امرأة !! وأي تكريم أجل من أن يتولى الله تزويج امرأة بنفسه !!

فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخرٌ للرجال

وأكمل النساء تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متلألأة بنور الإيمان تقرُّ في كل شيء معناه السماوي معنى هذه المرأة : المعبد المقدس معناه : القوة المسعدة .

المرأة: حقُ المرأة هي تلك التي خلقت لتكون للرجل مادة الفضيلة والصبر والإيمان فتكون له وحيًا وإلهامًا وعزاءً وقوة أي : زيادة في سروره ونقصًا من آلامه .

ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد هي صفاتها التي تجعل رجلها أعظم منها (٢).

وقدامتلأت السير والتراجم بتاريخ حياة العظميات من النساء والصالحات القانتات من النساء والزوجات واللآئي كن كالدواحي السامقات مثل آسية زوج فرعون التي كانت مثلاً عاليًا للاستعلاء على عرض الدنيا .

قال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** ﴾[التحريم : ١١] .

قال الشيخ سيد قطب : « ها هي ذي امرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه . . . في قصر فوعون . . . عن طلب النجاة وحدها . . . وقد تبرأت من قصر

(١)ابن ماجه .

(٢)صلاح الأمة ، جـ ٧ ، ص ١٢٥ .

فرعون طالبـة إلى ربها بيتًا في الجنة . . . وبـرأت وتبرأت من صلتها بفـرعون وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقهـا من عمله شيء وهي ألصق الناس به وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم .

ودعاء امرأة فرعون ومـوقفها مثل للاستعلاء على عـرض الحياة الدنيا في أزهى صورة فقد كـانت امرأة أعظم ملوك الأرض يومئـذ في قصر فرعـون أمتع مكان تجد فيـه امرأة ما تشتهي ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ولم تعرض عن هذا العَرَض فحسب بل اعتبرته شرًا ودنسًا وبلاء تستعيذ بالله منه وتتفلت من عقابه وتطلب النجاة منه وهي امرأة واحدة في مملكة عريضـة قوية وهذا فضل آخـر عظيم فالمرأة أشد شـعورًا بوطأة المجتـمع ، تصوراته ولكن هذه المرأة وحـدها في وسط ضغط المجـتمع وضـغط القصـر وضغط الملك وضـغط الحاشية والمقام الملوكي في وسط هذا كله رفعت رأسـها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي !! وهي نمـوذج عال في التجرد لله مـن كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر وكل هذه المعوقات وكل هذه الهـواتف ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كـتاب الله الخالد تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى . ا. هـ .

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « **كمل من الرجال كـثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمـران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام** »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « **حـسبك من نـساء العـالمين بأربع: مـريم بنت عمـران ، وآسيـة امـرأة فرعـون ، وخديجـة بنت خـويلد ، وفاطمـة بنت محمد**»(٢) .

ومريم البتول رضي الله عنها رمز للتجرد لله تعالى .

كملت فلم يكن للشيطان فيها نصيب منذ حـمل أمها بها وهي كذلك مثل للتجرد لله والإيمان الكامل والطاعة المطلقـة قال تعالى :﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم : ١٢] .

---

(١) البخاري .

(٢) الترمذي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه** »(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها** »(٢) - رضي الله عنها - فتقبلها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا!

ولله درها حين يقول ربها عنها :﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

وفي تعيين محلها بالمحراب ما يشير إلى معنى رجوليتها باطنًا، وكمال عبادتها .

وسيدة نساء العالمين وأول من أسلم :خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

قال ابن الأثير : خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين .

قال علي بن أبي طالب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **خير نسائها خديجة بنت خويلد وخير نسائها مريم بنت عمران** »(٣) .

قال ابن إسحاق : كانت خديجة وزيرة صدق .

وعن عبد الله بن جعفر قال : قال رسول الله ﷺ : « **أمرت أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب** »(٤) .

والمراد : قصب اللؤلؤ .

لما دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام أجابته خديجة طوعًا فلم تحوجه إلى رفع الصوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك بل أزالت عنه كل نصب وآنسته من كل وحشة وهونت عليه كل عسير وقال فيها رسول الله ﷺ : « **آمنت بي إذ كذبني الناس وآوتني إذ رفضني الناس**»(٥) .

---

(١) مسلم وأحمد .
(٢) مسلم .
(٣) البخاري .
(٤) أحمد .
(٥) أحمد .

الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ زوجـة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة الفقيهة الربانية المبرأة من فـوق سبع سماوات انتقل إلى الرفيق الأعلى عنـها رسول الله ﷺ بعد أن أقام معـها تسع سنوات وحين انتقل ﷺ ما كانت تـخطو بعدُ إلى التاسعة عـشرة على أنها ملأت أرجاء الأرض علمًا فهي في الحديث وروايته نسيجُ وحدها وعت من أحاديث رسول الله مالم تَعِه امرأة من نسائه وروت مالم يرو مثله أحد من الصحابة إلا أبو هريرة وعبد الله ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الذهبي : « لا أعلم في أمة محمـد ﷺ بل ولا في النساء مطلقًا امرأة أعلم منها ونشهد أنهـا زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة فـهل فوق ذلك مفتخـر؟! » ا . هـ . سير أعلام النبلاء .

وحبه ﷺ لعائشة كان مستـفيضًا بين نسائه وقد قال ﷺ : « **يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه ـ والله ـ ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها** » [(١)].

لقـد كانت رضي الله عنهـا إحدى المجـتهـدات من أنفذ الناس رأيا في أصـول الدين ودقائق الكتاب المبين وكم كان لها رضي الله عنها من استدراكات على الصحابة وملاحظات فإذا علمـوا بذلك منها رجعـوا إلى قولها قـال أبو موسى الأشعـري رضي الله عنه : « ما أشكل علينا ـ أصـحاب رسول الله ﷺ ـ حـديث قط فسـألنا عائشة إلا وجـدنا عندها منه علمًا» [(٢)].

وقال مسروق : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله يسألونها عن الفرائض .

وقال عطاء بن أبي رباح : كانت عائشة أفقه الناس .

وقال الزهري : لو جـمع علم الناس كلهم وأمهـات المؤمنين لكانت عائشة أوسـعهم علمًا.

قال الذهبي : مسند عائشة يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث .

ولما ذكر ابن حزم السـماء الصحابة الذين رُويت عنهم الفـتاوى في الأحكام على مزيّة

(١)البخاري ومسلم .
(٢)الترمذي .

كثرة ما نُقل عنهم قدم عائشة على سائر الصحابة .

وعن عروة بن الزبير : ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا طب ولا بشعر من عائشة ولقد صحبت عائشة فما رأيت أحدًا قط كان أعلم بآية نزلت ولا بفريضة ولا بسنة ولا بشعر ولا أروى له ولا بيوم من أيام العرب ولا بنسب ولا بكذا ولا بكذا ولا بقضاء ولا طب منها وأن مناقب عائشة رضي الله عنها أكثر من تعد وتحصى :

لئن كان النساء كما ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

ولا يتسع المجال إلى ذكر الصالحات القانتات من النساء أمثال : فاطمة أم أبيها بنت رسول الله ﷺ وأم المؤمنين زينب بنت جحش وحفصة بنت عمر بن الخطاب وأسماء بنت الصديق ذات النطاقين وسمية بنت خياط وأم عمارة نسيبة بنت كعب وأسماء بنت يزيد بن السكن التي قتلت تسعة من الروم يوم اليرموك وغيرهن من الصالحات اللائي كن قدوه وأسوة النساء المؤمنين .

وسوف نتناول في الصفحات التالية أمثلة وقصصًا لنساء شقت عصا طاعة أزواجهن وتمردن على طاعة ربهن وانضممن إلى حزب الشيطان .

امرأة نوح عليه السلام :

وكانت زوجة نوح عليه السلام تدعى (واعلة) .

قد تكون تلك المرأة هي من أوائل الظالمات على الأرض مع أنها زوجة نبي كريم دعا قومه إلى عباد الله وحده ألف سنة إلا خمسين عامًا .

ولأنها كانت أول زوجة لنبي تعصاه وتخالف دعوته فقد استحقت أن يضرب بها المثل عند ذكر الكفار كما قال عز وجل :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾[التحريم : ١٠] .

فالله تعالى يضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ويتعظون ومن تلك الأمثال ضرب الله مثلاً للكافرين في عدم انتفاعهم بقرابة المؤمنين .

فذكر الله مثلا للكافرين بحال امرأة نوح وامرأة لوط كانتا في عصمة نبيين رسولين

فخانتهما بالكفر وعدم الإيمان فلم يدافعا عن امرأتيهما مع علو قدرهما ونبوتهما ـ شيئًا من عذاب الله وقيل لهاتين الزوجتين : ادخلا نار جهنم مع الداخلين .

فلقد أرسل الله تعالى نبيه نوحًا عليه السلام نذيرًا مبينًا إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده ويذكرهم بأنه يخشى عليهم عذاب يوم القيامة وظل عليه السلام يدعو قومه إلى التوحيد مدة ألف عام إلا خمسين عامًا فلم يجد منهم إلا الكفر والإعراض والصد عن سبيل الله والنيل منه ومن دعوته وممن أسلم معه وكانت زوجته ممن كفر بالله ورسوله نوح عليه السلام وهي زوجته .

فأمر الله تعالى نوحًا عليه السلام أن يصنع سفينة ضخمة ويحمل فيها معه من كلٍ زوجين اثنين ذكرًا وأنثى وحمل نوح عليه السلام أهله إلا امرأته وابنه يام، وقيل: كنعان فإن الله قضى عليهما بالهلاك وصارت السفينة تجري بهم في موج ارتفاعه كالجبال .

ولما انتهى أمر الطوفان وغرق كل أهل الكفران قيل للأرض : يا أرض ابلعي ماءك الذي خرج منك ويا سماء أمسكي عن نزول المطر منك فنقص الماء وجف في الحال وفرغ من هلاك الكافرين والكافرات واستقرت السفينة على قمة جبلٍ وقيل : سحقًا وهلاكًا للقوم الظالمين .

وكانت امرأة نوح عليه السلام من الظالمات لأنها أعرضت عن التوحيد ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : « **فخانتاهما** » كانت خيانتهما أنها كانا على غير دينهما وكانتا مشركتين فإنه ما بغت ـ زنت ـ امرأة نبي قط .

أي : فخانتاهما في الدين لا في الفراش فسحقًا لهما في النار .

لقد سقطت امرأة نوح عليه السلام في أكبر الكبائر عند الله تعالى وهي الشرك بالله.

وفي سيرة امرأة نوح عليه السلام عظة أن الأنساب لا تغني يوم الحساب ولذا قام الرسول ﷺ على جبل الصفا فقال : « **يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئًا سلوني من مالي ما شئتم** »(١) .

والمعنى لا أقدر أن أدفع عنكم من عذاب الله شيئًا إن أراد الله تعالى أن يعذبكم .

(١) مسلم والترمذي .

لذا فالحسب الحقيقي لكل مسلم ومسلمة هو التقوي ونسبها هو الإسلام وجاهها هو الإيمان فلترفع في حسبك بالعمل الصالح ولتتمسك ولتتمسك بنسبك الأصيل ولتعتمد على جاهك الذي لا يخيب ظن صاحبه(١) .

قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١-١٠٣] .

امرأة لوط عليه السلام :

إنها والهة زوجة نبي الله لوط عليه السلام .

ولما ابتعث الله لوطًا عليه السلام لدعوة قومه إلى عبادة الله وحده والتمسك بتقواه وذكرهم بأنه لا يطلب أجرًا على دعوته لهم فهو رسول أمين أجره على رب العالمين .

ونهاهم لوط عليه السلام عن فعل الرذيلة النكراء التي لم يفعلها غيرهم من بني آدم أجمعين إذ كانوا يأتون الرجال ويتركون إتيان النساء فيتجاوزون الحلال إلى الحرام فكانوا من المعتدين .

فكان رد قوم لوط على نبيهم ردًا قبيحًا وصدوا عن سبيل الله صدودًا فقالوا له : لئن تتوقف عن دعوتك لتكونن من المخرجين من قريتنا .

ولما أرسل الله تعالى الملائكة الكرام إلى لوط عليه السلام فلما دخلوا عليه ساءه مجيئهم وضاق صدره بحضورهم وهو لا يعرف أنهم ملائكة .

ولم يعلم بهؤلاء الضيوف إلا أهل لوط فخرجت امرأته والهة فأخبرت قومها وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط .

فلما سمع قوم لوط بحضور أغراب إلى دار لوط عليه السلام جاءوا إليه مسرعين ومن قبل كانوا قد نهوه عن ضيافة غرباء من الرجال وراودوه عن ضيفه وحاولوا الاعتداء على رسل الله عز وجل .

حاول لوط عليه السلام أثناء قومه عن قصدهم بشتى الطرق ففشل ولما يئس من

(١) نهاية الظالمات ص ١٥ .

إصلاحهم قال : لو أن لي قوة في البدن وأنصارًا وأعوانًا لدفعتكم أو ألجأ إلى عشيرة تمنعني وأضيافي منكم لفعلت .

ولما سمعت الملائكة ذلك وشاهدته قالوا : يا لوط إن ركنك شديد إنا ملائكة أرسلنا الله إليك فاسمع منا : إنهم لن يصلوا إليك بمكروه فسر بأهلك ليلاً ولا ينظر أحد منكم وراءه أثناء سيركم إلا امرأتك إنها تلتفت فتهلك.

وأعلم أن موعد هلاكهم وقت الصبح فقال لوط عليه السلام : لو كان أسرع من ذلك؟ فقالت الملائكة : أليس الصبح بقريب؟

فلما جاء موعد هلاكهم وخرج لوط بأهله إلا امرأته جعل جبريل عليه السلام أعلى القرية أسفلها وأمطرها بحجارة شديدة متتابعة بعضها فوق بعض معلمة بعلامة من عند الله تعالى فلا تخطئهم .

هكذا لم تسر معهم امرأة لوط والهة فكانت من الهالكات الظالمات ولم يكن يغني عنها كونها امرأة نبي مرسل لأنها صدت عن سبيل الله فكان جزاؤها الإهلاك : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ .

قاتلة يحيى بن زكريا عليهما السلام :

عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة ـ يعني دمشق ـ هدار بن هداد وكان قد زوج ابنه ابنة أخيه أديل ملكه صيدا وقد كان من جمله أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال : لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جبرون من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول له : لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما مثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها وجعلت أمها تولول والجواري تصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ووقعوا في الذل والفناء

ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً(١) .

معذبة زنيرة (٢):

وكانت زنيرة فتاة صغيرة مملوكة عند امـرأة مشركة من قريش لما أسلمت قامت سيدتها تعذبهـا بالليل والنهار وذات يوم جمـعت الجواري وأمرتهن أن يضـربنها على رأسهـا حتى فقدت البصر فإذا عطشت قـالت : أعطوني الماء : قالت : الماء أمامك فابحثي عنه. قالت لها سـيدتها : يا زنيرة إن كـان ربك الذي تؤمنين به حقًا كـما تزعمين ادعيـه فليرد عليك بصرك لكي ترى الماء والطعام فرفعت يديها إلى الله وقالت : اللهم إني أسألك أن ترد على بصري : فـأبصرت وإذا بسـيدتها تصـرخ وتصيح من رأسهـا وارأساه وتقـول للجواري : احملن النعال والقباقيب واضربوني على رأسي فضـربنها حتى فقدت البصر ! وهكذا ينتقم الله لأوليائه .

الأولاد :

من قسمة الله التي أمـضاها واستأثر بسر مقتـضاها أن جعل من الأولاد قرة عين ودرة زين فكم من ولد شد به أزر سلفه وشيد به ذكـر خَلَفه فكان بدرًا في بروج المحاشر وقطعًا لفلك المحامد :

كأنهم وُلدوا من قبل أن وُلدوا   أو كان فهمهم أيام لم يُكنِ

ولقد حفل التـاريخ بعدد من الأولاد من كان قرة عين لآبائهم وهامـة في علو همتهم وطاعتهم لربهم وكانوا في عـبادتهم لربهم رواسي شامخات ودرر سامقـات أمثال يحيى بن زكريا عليهما السلام فقد كانت لزكريا عليه السلام إلى ملك الملوك حاجة ولازم سدة مولاه إلى أن أتته الإجابة .

قال تعالى ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٧] .

إن الله هو الذي سماه ولم يكل تسميته لأبيه وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى عليه السلام

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٥١ .

(٢) الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

ما أظن أحدًا من البشر حازها سواه .

قال ابن عبــاس : لم يسم يحيى قبله غيــره وقال أيضًا : هل تعلم له مثلاً أو شـبهًا؟ ومن تولى الله تسميته . . صفعه على عينه .

قال تعالى :﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم : ١٢] فهما وعلمًا وجدًا وعزمًا وإقبالاً على الخير وانكبابا عليه واجتهادًا فيه وهو حدث صغير .

قال أبو حيان : الحكم : النبوة .

آتاه الله الحكم صبيًــا فكان فذًا في زاده كما كــان فذا في اسمه وميــلاده فالحكمة تأتي متأخرة ولكن يحيى قد زُود بها صبيًا .

قال الصبيــان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . قال :مـا للعب خلقنا فسلام الله على من سلم عليه في مواطن الوحشة وأمنَّه وســلام الله على من وصفه الله بالسيادة فكان سيدًا في العلم والعبادة [(١)] .

ومن أمثال علي بن أبي طالب الذي كــان صُبحًا لا يُحجب فَلَقَه وســابحًا لا يُستوعب طلقه .

وعن ابن إسحاق قال : أول ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدقه علي بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين وكان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام .

وكان علي يكـتم إيمانه خوفًا من أبيــه حتى لقــيه أبوه قال : أسلـمت ؟ قال : نعم . قال: وازر ابن عمك وانصره .

والأصح : « أول من أسلم من النســاء خديجــة ، وقيل : الرجال أيــضًا ـ وأول من أسلم من الموالي زيد بن حــارثة وأول من أسلم من الغلمــان علي بن أبي طالب فإنــه كان صــغيــرًا دون البلوغ على المشهــور . كانــوا إذ ذاك أهل البيت وأول من أسلم من الرجــال الأحرار أبو بكر الصديق [(٢)] .

رضي الله عن الغلام المبارك الذي ولد في الإيمان والعبادة والهدى وكان سابق المسلمين

---

(١) صلاح الأمة: جـ ٧ ص ٥٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٣ ، ص ٢٦ .

بوركت هذه الحياة !! حياة لم تكن لها قط صبوة ولا شهوة ولا هفوة !! حياة ولد صاحبها وتبعات الرجال فوق كاهله !!

حتى لهو الأطفال لم يكن لحياة علي بن أبي طالب فيه حظ ولا نصيب !!

المقادير كانت تدخر سمعه ووجدانه لكلمات أخرى ستغير وجه الأرض ووجه الحياة.

وفي نور الآيات المنزلة قضى علـى بواكير حيـاته النضرة يبصـره نورها ويهزه هديرها وكان ربيب الوحي والتلميذ الأول للقرآن وكان له فضل السبق والصدق .

وورث فرع المجد من آل هاشم وجاء كريما من كرام أماثل

ومن أمثال الصغيـرين معاذ بن الحارث ومعوذ بن الحارث ـ ابني عـفراء ـ قَتَلةُ فرعون هذه الأمة أبو جهل :

عن عـبد الرحـمن بن عـوف رضي الله عنه قـال : « إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أظلع منهما فغمزني أحدهما فقال : يا عم أتعرف أبا جهل ؟ فقلت : نعم وما حاجتك إليه؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفـسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعـجل منا فتعجبت لذلك!! فـغمزني الآخر فقال لي أيضـا مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جـهل وهو يجول في الناس فـقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحـبكم الذي تسألان عنه فابتدراه بسيفيهما فقال : « كلاهما قتله » وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح والآخر معاذ بن عفرا»(١) .

وعند البخـاري : عن عبـد الرحمن بن عوف : « إني لفي الصـف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه وقال لي الآخر سرًا من صـاحبه مثله قال : فما سرني أني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء»(٢) أي معاذ ومعوذ.

(١) البخاري ومسلم .

(٢) البخاري ومسلم .

لقد سر رسول الله بما صنع الصقران وخر ساجدًا كما جاء عند البيهقي .

ومن أمثال عبد الله بن الزبير الذي كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة وكبر المسلمون تكبيرة واحدة حتى ارتجت المدينة وحنَّكه رسول الله ﷺ وكان أول شيء دخل بطنه لريق رسول الله ﷺ .

وأدرك ابن الزبير من حياة النبي ﷺ ثمانية أعوام وأربعة أشهر .

وقد روى من غير وجه أن عبد الله بن الزبير شرب من دم الرسول ﷺ .

حَدَّث عامر بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدَّثه أنه أتى النبي ﷺ وآله وهو محتجم فلما فرغ قال : « يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد » فلما برزت عن رسول الله ﷺ عمدت إلى الدم فحسوته فلما رجعت إلى النبي ﷺ قال : « **ما صنعت يا عبد الله ؟**» قال : جعلته في مكان ظننت أنه خافٍ على الناس قال : « **لعلك شربته؟**» قلت: نعم . قال : « **ومن أمرك أن تشرب الدم؟ ويل لك من الناس وويل للناس منك**»(١) .

قال أبو عاصم : كانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم!

وفي البخاري عن عروة : « أن الزبير أركب ولده عبد الله يوم اليرموك فرسًا وهو ابن عشر سنين ووكل به رجلاً »(٢) .

ومر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعبد الله بن الزبير وهو يلعب مع الصبيان ففروا حين رأوا عمر رضي الله عنه وثبت عبد الله فقال عمر : مالك لا تفر مع أصحابك؟ فقال : لم أجرم فأخافك ولم يكن في الطريق ضيق فأوسع لك .

قال محمد بن المظفر في كتابه « نجباء الأبناء » : بلغني أن الشفاء بنت هاشم وهي امرأة من المهاجرات ـ دخلت على أسماء بنت أبي بكر الصديق ، فقالت لها ـ ماذا لقيت من عبد الله؟!! لقيته اليوم فقلت : أحقا بايعك رسول الله ﷺ؟! فقال : نعم فقلت : بالله لقد آثرك الله على صغر سنك . فقال : يا خاله إن صغيرنا إلى كِبَر وإن كبراكُنَّ إلى

(١) الطبراني والبزار وابي يعلى والحاكم .

(٢) البخاري .

الصغر وبعد فرسول الله أبصر » (١).

وبعد فلا تعليق فالموقف تعجز عن تصويره الكلمات!!

الأولاد وعقوق الوالدين :

قال رسول الله ﷺ : « **رضا الرب من رضا الوالدين وسخطه من سخطهما** »(٢).

قال الغزالي : وآداب الولد مع والده أن يسمع كلامه ويقوم بقيامه ويمتثل أمره ولا يمشي أمامه ولا يرفع صوته ويلبي دعوته ويحرص على طلب مرضاته ويخفض له جناحه بالصبر ولا يمن بالبر له ولا بالقيام بأمره ولاينظر إليه ولا يقطب وجهه في وجهه(٣).

روى ابن أبي الدنيا عن أبي قزعة رجل من أهل البصرة قال : مررنا ببعض المياه التي بيننا وبين البصرة فسمعنا نهيق حمار فقلنا لهم : ما هذا النهيق؟ قالوا : هذا رجل عندنا فكانت أمه تكلمه بالشيء فيقول: انهقي نهيقك فكانت أمه تقول : جعلك الله حمارًا فلما مات نسمع هذا النهيق عند قبره كل ليلة.

وعن أبي عبد الرحمن الطائي قال : كان رجل من بني نهد قد كبر وضعُف يُكنى أبا منازل وكان له ابن يقال : مُنازل وكان له ولد صغار فكان إذا أصاب شيئًا أعطاهم إياه وكان يقبض عطاء أبيه وكان شيخًا كبيرا فولد للشيخ بنون صغار فكان منازل يستأثر عليهم فلما خرج العطاء خرج منازل يقود أباه حتى أجلسه يقبض العطاء فلما نودي باسمه فقام منازل فقال : أعطوني عطاءه فقام الشيخ فقال : أعطوني عطائي في يدي ففعلوا فحمل عطاءه ثم قام يتوكأ على منازل فقال منازل : هلم أحمله عنك قال : دعه فلما خلا له الطريق فك يد أبيه ثم أخذ العطاء فذهب به فانصرف الشيخ وليس معه في يده شيء فقال له أهله وولده: ما صنعت؟ قال : أخذ منازل عطائي ثم أنشأ يقول :

جزت رحم بيني وبين منازل ... جزاء كما يستنجز الدين طالبه
وربيته حتى إذا ما هو استوى ... كبيرًا وسادى عامل الرمح غاربه
تظلمني مالي كذا ولوى يدي ... لوى يده الله الذي هو غالبه

(١)صلاح الأمة ، جـ ٧ ، ص ٦٥ .
(٢)الطبراني .
(٣)فيض القدير ، جـ ٤ ، ص ٣٣ .

فأصبح منازل ملويًا يده .

وذكر العلماء :أن رجلاً عنده والد كبير فتأفف من خدمته ومن القيام بأمره فأخذه وخرج إلى الصحراء ليذبحه فلما وصل إلى صخرة أنزله هناك ، فقال : يا بني ماذا تريد أن تفعل بي؟ قال: أريد أن أذبحك قال : إن أبيت إلا ذبحي فاذبحني عند الصخرة التالية، فقال الابن وماذا يضرك أن ذبحتك عند هذه الصخرة أو التي تليها ؟ قال : أنا كنت قبلك عاقًا لوالدي وذبحته عند تلك الصخرة ولك يا بني مثلها .

النضيرة بنت الساطرون:

الساطرون هو الضيزن بن معاوية صاحب الحضر وهو حصن على حافة الفرات وبداخله مدينة عظيمة أغار عليه سابور وحصره سنتين فأشرفت النضيرة بنت الساطرون فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب وكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلاً فدست إليه أتتزوجني إن فتحت لك باب الحضر؟ فقال : نعم ، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه وبعثت بها مع مولى لها فتح الباب ويقال : بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع فولجوا منه إلى الحضر فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخربه وسار بها معه فتزوجها فبينما هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تتململ لا تنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس . فقال لها سابور : أهذا الذي أسهرك؟! قالت نعم : قال : فما كان أبوك يصنع بك؟ قالت :أن يفرش لي الديباج ويلبسني الحرير ويطعمني ويسقيني الخمر قال: أفكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إلى بذلك أسرع فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها كما كانت سببًا في مقتل أبيها .

الشاعر جرير بن عطية:

كان جرير بن عطية الشاعر أعق الناس بأبيه وكان بلال ابنه - جرير - كذلك فراجع بلالا في الكلام فقال له بلال : الكاذب بيني وبينك فاعل بأمه فأقبلت أمه عليه وقالت : يا عدو الله تقول هذا لأبيك !! فقال جرير : دعيه فكأنما سمعها مني وأنا أقولها لأبي [(١)].

رقاش :

قال محمد بن حرب : كانت رقاش امرأة من إياد بن نزار وكان أبوها يحبها حبا شديدًا فخطبها رجل من قومها فأعجبت به ووقع من قلبها فامتنع أبوها من تزويجه فسقت أباها شربة فلما وجد حس الموت قال : يا رقاش قتلتني من هو أبعد مني وسوف ينالك وبال النقمة .

قال : فلما هلك أبوها تزوجت هذا الرجل الذي خطبها فلم يلبث أن ضربها فقيل لها: يا رقاش ضربك زوجك؟ فقالت : من قل ناصره اعترف بالذل ثم لم يلبث زوجها أن تزوج عليها فقيل : يا رقاش تزوج عليك زوجك فلو سألته الطلاق قالت : لا أبغي الشر بالشر وحسبك بالطلاق عيبا بالحرة .

فيها أيها المضيع لأكبر الحقوق المعتاض من بر الوالدين بالعقوق الناس لما يجب عليه الغافل عما بين يديه بر الوالدين عليك دين وأنت تتعاطاه باتباع الشين تطلب الجنة بزعمك وهي تحت أقدام أمك حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج وكابدت عند الوضع ما يذيب المهج وأرضعتك من ثديها لبنا وأطارت لأجلك وسنا وغسلت بيمنها عنك الأذى وآثرتك على نفسها بالغذا وصيرت لك حجرها مهدا وأنالتك إحسانا ورفدا فإن أصابك مرض أو شكاية أظهرت من الأسف فوق النهاية وأطالت الحزن والنحيب وبذلت ما لها للطبيب ولو خيرت بين حياتك وموتها لطلبت حياتك بأعلى صوتها هذا وكم عاملتها بسوء الخلق مرارًا فدعت لك بالتوفيق سرًا وجهارًا فلما احتاجت عند الكبر إليك جعلتها من أهون الأشياء عليك فشبعت وهي جائعة ورويت وهي قانعة وقدمت عليها أهلك وأولادك

(١) الجزاء من جنس العمل جـ ٢ ، ص ١٩٤ .

بالإحسان، وقابلت أياديها بالنسيان وصـعب لديك أمرها وهو يسير طال عليك عمرها وهو قصير هجرتها ومالها سواك نصير هذا ومولاك قد نهاك عن التأفف وعاتبك في حقها بعتاب لطيف ستعاقب في دنياك بعقـوق البنين وفي أخراك في البعد من رب العالمين يناديك بلسان التوبيخ والتهديد : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الحج : ١٠] (١).

---

(١)الذهبي : الكبائر ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

المطلب السابع

اتباع الهوى والصد عن سبيل الله

المطلب السابع

اتباع الهوى والصد عن سبيل الله

قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ ؟ أفرأيته ؟! إله كائن غريب يستحق الفرحة والتعجيب وهو يستحق من الله أن يضله فلا يتداركه برحمة الهدى فما أبقى في قلبه مكانا للهدى وهو يتعبد هواه المريض .

قال قتــادة : إذا هوى شيئًا ركــبه وقال الحسن : المنافق يــعبد هواه لا يهوى شــيئًا إلا ركبه .

ومن تذكــر وصحا وتنبــه وتخلص من ربقــة الهوى فلن يضل قــال رسول الله ﷺ : **«ثلاث منجيــات : خشيــة الله في السر والعــلانية والعدل في الرضــا والغضب والقــصد في الفقر والغنى ، وثلاث مهلكات : هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه »** (١) .

وذلك لأن كل معــصية سبــبها هوى النفس فــهو يقود إلى النار أعــاذنا الله منه ، قال بعض العارفين : إذا بدهك أمران لا تدري في أيهما الصــواب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه وفي هذا المعنى قال الشافعي رضي الله عنه :

إذا حال أمرك في معنيـــين ... ولم تدر حيث الخطا والصواب

فخالف هواك فإن الهـــوى ... يقود النفــوس إلى ما يعـــاب

وقال سليمان بن داود عليه السلام : الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده.

وقال مالك بن دينار : مــن غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يَفْـرَقُ الشيطان من ظله.

(١) الطبراني .

وقال : بئس العبد عبد همه هواه لظنه .

وقال صفوان بن سليم : ليأتين على الناس زمان تكون همة أحدهم فيه بطنه ودينه هواه.

وقال بشر : اعلم أن البلاء كله في هواك والشفاء كله في مخالفتك هواك.

وقال الحسن بن علي المطوعي : صنم كل إنسان هواه فإذا كسره بالمخالفة استحق اسم الهوى .

وقال لقمان لابنه : أول ما أحذرك من نفسك فإن لكل نفس هوى وشهوة فإن أعطيتها شهوتها تمادت وطلبت سواها فإن الشهوة كامنة في القلب كمون النار في الحجر إن قدح ورى وإن ترك توارى قال بعضهم :

إذا ما أجبت النفس في كل دعوة دعتك إلى الأمر القبيح المحرم

وقال آخر :

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى طرق الرشاد إذا اتبعت هواك

وقال غيره :

لقد ترفع الأيام من كان جاهلاً ويُردى الهوى ذا الرأي وهو لبيب

وقد تحمد الناس الفتى وهو مخطئ ويعدل في الإحسان وهو مسيء

ومن المأثور : الهوى ملك عسوف وسلطان ظالم وانحنت له القلوب وانقادت له النفوس.

وعن عيسى بن مريم عليه السلام لما سئل : كيف ندرك جماع الصبر؟ قال : اجعلوا عزمكم في الأمور كلها بين يدي هواكم ثم اتخذوا كتاب الله عز وجل إمامًا لكم في دينكم.

وقال الشاعر :

نون الهواية من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

وكل امــرئ يدري مــواقع رشــده ولكـنه أعــمـى أســيــر هواه
يُشـيـر عليـه الناصـحون بجـهلهم فـيأبى قبـول النصح وهو يراه
هوى نفسـه يعميه عن قصـد رشده ويبـصـر عن فـهم عـيـوب سـواه

تالله إن جوهر معناك يتظلم من سوء فعلك لأنك قد ألقيته في مزابل الذل ماء حياتك في ساقـية عمرك قـد اغدودك فهو يسـيل ضائعًا إلى مـهاوي الهوى ويتسـرب في أسراب البطالة فقد امتـلأت به خربات إلى مزارع التقوى لعله يحدق نور حـديقة إلى متى يمتد ليل الغفلة ؟ متى تأتي تباشير الصباح ؟!

زمـان تقـضى وعـيش مـضى بنـفـسي والله تلـك العـهـود
ألا قل لـسكان وادي الحـبـيب :هنيـئًا لـكم في الجنـان الخلود
أفيـضـوا علينـا من الماء فـيـضًا فنـحـن عـطـاش وأنـتـم ورود

ومن منثورهم : الهوى مـركب ذميم يسير بك في ظلمات الفتن ومرتع وخـيم يقعدك في مـواطن المحن فلا تحـملنك شـهوة النـفس على ركوب المذمـات والقـعود في مـواطن الخطيئات.

الدنيا نوم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام من نظر بعين الهـوى حار ومـن حكم على الهـوى حار ومن أطـال الـنظر لم يدرك الغـاية وليس لناظر نهاية.

بلعام بن باعوراء :

قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٧] .

قال محمد بن إسحاق : عن سـالم بن أبي النضر أنه حدث : أن موسى عليه السلام لما أنزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعـام إليه فقالوا له : هذا موسى بن عمران في بني إسـرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا وينقلنا ويحلهـا بني إسرائيل وإنا قومك

وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم قال : ويلكم ! نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ قالوا : مالنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجها إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حُسبان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا بلغ منه الجهد قامت فركبها فلم تسر به كثيرًا فربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا بلغ منه الجهد قامت فركبها فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به فضربها حتى إذا بلغ منه الجهد أذن الله لها فكلمته حجة عليه فقالت : ويحك يا بلعام أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة تردني عن جهي هذا؟! أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها بضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه لبني إسرائيل فقال له قومه : أتدري يا بلعام ماتصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ! قال : فهذا مالا أملك هذا شيء قد غلب الله عليه ! قال : واندلع لسانه خرج من الفم واسترعى كلمات الكلب - فوقع على صدره فقال لهم : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فأمكر لكم وأحتال : جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة من رجل أرادها فإنهم إن زنا رجل منهم واحد كفيتوهم فافعلوا .

فلما دخل النساء المعسكرات مرت امرأة من الكنعانيين اسمها : كسبى ابنة صور رأس أمته برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمرى بن سلوم رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحاق - عليهم السلام - فقام إليها فأخذها بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام فقال : إني أظنك ستقول هذا حرام عليك؟! قال : أجل هي حرام عليك لاتقربها قال : فوالله لا نطيعك في هذا ثم دخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله عز وجل - الطاعون في بني إسرائيل [1] .

﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نبأَ الَّذي آتيْناهُ آياتنا فانسلَخَ منْهَا ﴾ .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ص : ٢٧٠ - ٢٧٣ .

واتل عليهم يا محمد نبأ الذي آتيناه: علمنا وآياتنا فانسلخ منها وركن إلى الدنيا ﴿فأتبعه الشيطان﴾ أي : استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل لأمره وأطاعه ولهذا قال :﴿فكان من الغاوين ﴾ أي: من الهالكين الحائرين البائرين .

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أي : لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا الدانية بالآيات التي آتيناه إياها .

﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ أي : مال إلى زينة الحياة الدنيا وزمرتها وأقبل على لذتها ونعيمها وغرته كما غرت من أولى البصائر والنهى .

﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ﴾ .

إن بلعام لما اندلع لسانه على صدرة فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وأن ترك .

وقيل : معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء والإيمان وعدم الدعاء كالكلب في لهثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته فهو يلهث في الحالتين فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه .

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أي : ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود بعد أن علموا بها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله ﷺ وكذبوا بها .

﴿ فاقصص القصص﴾ أي : فاقصص عليهم هذا القصص الذي هو صفة هذا الرجل المنسلخ من الآيات فإن حديثه المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين نقص عليهم﴿لعلهم يتفكرون ﴾ في ذلك ويعملون فيه أفهامهم فيزجرون عن الضلال ويقبلون على الصواب .

﴿ ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ .

قال ابن كثير : « أي : ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن خير العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار

شبيهًا بالكلب وبئس المثل مثلة(١) .

يقول سيد قطب : أتاه الله آياته فانسلخ منها وتعرى عنها ولصق بالأرض واتبع الهوى واستولى عليه الشيطان وأمسى مطرودا من حمى الله لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

إنسان يؤتيه الله آيات ويخلع عليه من فضله ويكسوه من علمه ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخًا كأنما الآيات أديم له تلبس بلحمه فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان .

هاهو ذا ينسلخ من آيات الله ويتجرد من الغطاء الواقي وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم فيصبح غرضًا للشيطان فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه مشهد بائس نكد إذا نحن بهذا المخلوق لاصقًا بالأرض ملوثًا بالطين ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب مشهد اللهاث القلق الذي لا ينقطع ولا يطمئن أبدًا والذي لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه فهو منطلق فيه أبدا .

مسخ شأنه الكيان هابط من مكان الإنسان إلى مكان الحيوان وكان الكلب الذي يتمرغ في الطين وكان له من الإيمان جناح يرف به إلى علّيّين وكان من فطرته الأولى في أحسن تقويم فإذا هو ينحط منها إلى أسفل سافلين (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٣ .
(٢) الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

السامري :

السامري : هو موسى السامري وكـان من بني إسرائيل من قوم موسى وقيل: إنه ولد في نفس العام الذي ولد فيه موسى عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى (٨٣) قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى (٨٤) قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري (٨٥) فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي (٨٦) قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري (٨٧) فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي (٨٨) أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا (٨٩) ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري (٩٠) قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى (٩١) قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا (٩٢) ألا تتبعن أفعصيت أمري (٩٣) قال يا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي (٩٤) قال فما خطبك يا سامري (٩٥) قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي (٩٦) قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا ﴾ [طه : ٨٣ ـ ٩٧] .

حين ذهب موسى لميقات ربه عمد رجل منهم يقال له السـامري فأخذ ما كان استعاره من الحلى فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبـضة من التراب كان أخذه من فرس جبريل حين رآه يوم أغرف الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خـار كما يخور العجل الحقيقي ويقال : إنه استحال عـجلاً جسدًا ، أي : لحمًا ودمًا حـيًا يخور قال قتادة وغـيره : وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دبره من فـمه يخور كمـا تخور البقـرة فيرقـصون حوله ويفـرحون : ﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ أي : فنسى موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هنا تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا وتقدست أسماءه وصفاته وتضاعفت آلاءه وعداته .

فأقبل موسى فعـنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعـتذر وإليه ما ليس بصحيح ﴿ ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري ﴾ تحرجوا من تملك حُلى آل فرعون وهم أهل حـرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتحـرجوا بجهلهم

وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار .

وأقبل موسى على السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ ما حملك على ما صنعت ؟

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي : رأيت جبريل وهو راكب فرسًا .

﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي : من أثر فرس جبريل فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال : ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ .

قال ابن كثير : هذا دعاء عليه أن لا يمس أحدًا معاقبة له على مسه مالم يكن له مسه. أي : كما أخذت ومسست مالم يكن لك أخذه ومسته من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول : ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ أي : لا تماس الناس ولا يماسونك فمن كان يمسه تصيبه الحمى(١).

ولما أنشأ السامري الفتنة ولما كانت ملامسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملامسته سببا للحمى التي هي من أسباب موت الأحياء وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل نَبَذَ فَنُبِذ كان هذا في الدنيا أما في الآخرة فقال له : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أي : يوم القيامة وإن لك وعدًا لعذابك وهو كائن لا محالة .

عمرو بن لحي الخزاعي :

عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة** » (٢).

وفي حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي كعب عن أبيه مرفوعًا : « **وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام** » (٣).

لما وليت خزاعة البيت وصار أمره إليهم كانوا قوم سوء في ولايتهم .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .
(٢) الطبراني .
(٣) الحاكم .

قال ابن كثير : وذلك لأن في زمانهم كـان أول عبادة الأوثان في الحجاز وذلك بسبب رئيسهم عــمرو بن لحي ـ لعنه الله ـ فإنه أول من دعاهم إلى ذلك وكان ذا مـال جزيل جدًا يقال : إنه ملك عشرين ألف بعير وممن ذكـر الأزرقي والسهيلي : أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة وكسا أي : عشـرة آلاف حلة في كل سنة يطعم العرب ويجيد لهم العيش بالسمن والعسل ويَلتُ لهم السويق قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم .

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن عــمرو بن لحي خرج من مكه إلى الشام في بعض أموره فـلما قدم مـآب من أرض البلقاء وبهـا يومئذ العـماليق وهم ولد عـملاق ويقال: ولد عـمليق بن لاوز بن سـام بن نوح رآهم يعبـدون الأصنام فقال لهـم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنسـتمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا فقال لهم : ألا تعطوني منها صنما أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنم يقال له : هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[1] .

قال ابن إسـحاق : واستبـدلوا بدين إبراهيم وإسماعـيل عليهما السـلام غيره فعـبدوا الأوثان وصاروا إلى مـا كانت عليه الأمم قـبلهم من الضلالات وفيـهم على ذلك بقايا من عـهد إبراهيم علـيه السـلام يتـمسكون به من تعـظيم البيت والطـواف به والحج والعمـرة والوقوف عـلى عرفات والمزدلـفة وهدى البدن والإهـلال بالحج والعمـرة مع إدخالهم فـيه ماليس منه فكانت كنانة وقـريش إذا هلوا قالوا : لبيك اللهم لبيـك لبيك لا شريك لله إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك فيوحدونه بالتلبـية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده .

يقول الله تعـالى لرسوله ﷺ : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي : ما يوحدونني لمعرفة حتى إلا جعلوا معي شريكا من خلقي وذكر السهيلي وغيره : أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحي وأن إبليس ـ عليـه لعنة الله ـ تبدى له في صورة شيخ فجعل يلقنه ذلك فيسمـع منه ويقول كما يقول واتبعه العـرب في ذلك ، ولم يتوقف شيطان عند هذا الحد وابتدع ـ لعنه الله ـ لهم أشياء في الدين غير بها دين إبراهيم الخليل ما تبعه العرب

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ، ص ١٩٠ ـ ١٩٣ .

في ذلك .

وانظر أيضا إلى ما ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي ـ قبحه الله ـ أنها مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم فهو أول من سيب السوائب وهو كاذب مفتر في ذلك ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام بعدما تابعوه فيما هو أظلم من ذلك وأعظم بكثير وهو عبادة الأوثان وقد قال تعالى : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾[المائدة : ١٠٣] .

ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله :

قال رسول الله ﷺ : « **رأيت عمرا بن عامر الخزاعي يجر قصبه ـ الأمعاء ـ في النار وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة** » (١).

وذلك لكونه استخرج من باطنه بدعة جر لها الجريرة على قومه فكذا يجر أمعاءه في النار .

وقال ﷺ : « **رأيت عمراً بن لحي بن قمعة بن خِنْدِف وهو يجر قصبه في النار**» (٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر وإني رأيته في النار يجر أمعاءه فيها**» (٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا ورأيت عمرًا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب** » (٤).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي : « **يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجل أشبه منك به ولا بك منه** ،فقال أكثم : عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؟ قال : **لا إنك مؤمن وهو كافر إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة**

---

(١) البخاري ومسلم .
(٢) مسلم .
(٣) أحمد .
(٤) البخاري .

وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي » (١) .

مسيلمة الكذاب :

كذاب اليمامة وكان يدعى رحمان اليمامة ادعى النبوة في عهد رسول الله ﷺ وقصدته سجاح ـ لما ادعت النبوة هي الأخرى ـ بجنودها لأخذ اليمامة منه فهابه قومها وقال : إنه قد استفحل أمره وعظم فقالت لهم فيما تقوله : عليكم باليمامة دفُّوا دفيف الحمامة فإنها غزوة صرامة لا تلحقكم بعدها ملامة قال : فعمدوا لحرب مسيلمة فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده فبعث إليها يستأمنها ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت فقد ردَّه الله عليك فحباك به وأرسل إليها يجتمع بها في طائفة من قومه فركب إليها في أربعين من قومه فلما خلا بها وعرض عليها ما عرض من نصف الأرض وقبلت ذلك قال مسيلمة : سمع الله لمن سمع وأطعمه بالخير إذا طمع ولا يزال أمره في كل ما يسر مجتمع رآكم ربكم فحياكم ومن وحشته أخلاكم ويوم دينه أنجاكم فأحياكم . . إلى آخر هذ الهراء وإلى آخر هذا الهراء وإلى آخر ما فعل اللعين مما يعنت القلم عن ذكره .

فلما رجعت سجاح إلى قومها قالوا : ما أصدقك؟ فقالت : لم يصدقني شيئًا. فقالوا: إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق؟ فبعثت إليه تسأله صداقًا فقال : أرسلي إليّ مؤذنك فبعثته إليه ـ وهو شَبَثُ بن ربعي ـ فقال : ناد في قومك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد ـ يعني صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة ثم أسلمت بعد ذلك سجاح .

هذا الكذاب الذي كَذب على الله ورسوله فشانه الله وفضحه بكذبه فما يسمى إلا مسيلمة الكذاب وكفى به جزاءًا في الدنيا فكيف بالقتل وقد قتله وحشي العبد ؟ فليف بيوم القيامة ؟

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٠] .

يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ١٨] .

---

(١) أخرجه بن أبي عاصم وحسنه الألباني .

وجاء في افتراءات مسيلمة الكذاب ما يثير الضحك والعجب العجاب : يا ضفدع بنت الضفدعين نقى لكى نقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك في الماء وذنبك في الطين .

وكان يقول : والمبذرات ذرعًا والحاصدات حصدًا والذاريات قمحًا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا والناردات ثردًا واللاقمات لقمًا إهالة وسمنًا لقد فضلتم على الوبر وما سبقكم أهل المدر رفيقكم فامنعوه والمعتر فآووه والناعي فواسوه .

وكان يقول : والفيل وما أدراك ما الفيل له زلوم طويل .

وكان يقول : والليل الدامس والذنب الهامس .

والله إنها لخرافات يأنف من قولها الصبيان وهم يلعبون .

قال الصديق لوفد بني حنيفة : ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟ إن هذا لم يخرج من أل !!

وفد عمر عمرو بن العاص أيام جاهليته على مسيلمة فقال له مسيلمة : ماذا أُنزل على صاحبكم في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال : وما هي؟ قال : أنزل عليه : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر : ١ - ٢] قال : ففكر مسيلمة ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل على مثلها فقال له عمرو : وما هي؟ فقال مسيلمة : يا وبر يا وبر إنما أنت إيراد وصدر وسائرك حفر نقر .

ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب .

وذكر أصحاب التراجم والسير : أنه كان يتشبه بالنبي ﷺ فبلغه أن رسول الله ﷺ بصق في بئر فغزر ماؤه ، فبصق في بئر ففاض ماؤه بالكلية وفي أخرى فصار ماؤه أجاجًا وتوضى وتوضأ وسقى لوضوئه نخلا فيبست وهلكت.

وأتى بولدان يبّرك عليهما فجعل يمسح رؤوسهم فمنهم من قرع رأسه ومنهم من لثغ لسانه .

ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمى .

وعن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة فقال : أين مسيلمة ؟ فقيل له : مه رسول الله ، فقال : لا حتى أراه فلما جاءه قال له : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم قال : من يأتيك؟ قال : رجس ، قال أفي نور أم ظلمـة؟ قال : في ظلمة فقال : أشـهد أنك كذاب وأن محمدًا صادق ولكن كذاب ربيعـة أحب إلينا من صادق مضر !!! واتبعه هذا الأعرابي الجلف ـ لعنه الله ـ حتى قتل معه يوم عقربا ـ لا رحمه الله .

ولما قدم هذا اللعين المدينة وافـدًا على رسول الله ﷺ وقد وقف عليـه رسول الله ﷺ فسمـعه وهو يقول : إن جعل لي مـحمد الأمر من بعـده اتبعته فقـال له : لو سألتني هذا العود ـ العرجون في يده ـ ما أعصيتكه ولئن أدبرت ليعقرنك الله إني لأراك الذي أريت فيه مـا أريت وكان رسـول الله ﷺ قد رأى في المنام كـأن في يديه سـوارين من ذهب فأهمـه شأنهما فـأوحى الله تعالى إليه في المنام انفخهمـا فنفخهما فطارا فأولهـما بكذابين يخرجان وهما صاحب صنعاء وصـاحب اليمامة وهكذا وقع فإنهما ذهبا وذهب أمـرهما أما الأسود فذبح في داره وأما مسيلـمة فعقره الله على يدي وحشي بن حرب رماه بالحـربة فأنفذه كما تعقر الإبل وضربه أبو دجـانة على رأسه ففلقه وذلك بعقر داره في حـديقة الموت وقد قتل قبله وزيراه : محكم بن الطفيل ، والرجال بن عنفوه .

روى البخـاري أن مسيلمـة كتب إلى رسول الله ﷺ : بسم الله الرحـمن الرحيم من مسيلمة رسول الله إلـى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد فإني قـد اشتركت معك في الأمـر فلك المدر ولي الوبر ويروى فلكم نصف الأرض ولنا نصـفـها ـ ولكن قـريشًا قـوم يعتدون .

فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحـيم ، من محمـد رسول الله ﷺ إلى مسيلمـة الكذاب سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

ولما مات رسول الله ﷺ زعم أنه استقل بالأمر من بعده واستخف قومه فاطاعوه أنهم كانوا قوما فاسقين .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٦ ، ص ٣٢٥ ، ٣٣١ .

وكان يقول :

خذي الدف يا هذه والعبي وبثي محاسن هذا النبي
تولى نبي بني هاشم وقام نبي بني يعرب

فلم يمهله الله بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى سلط الله عليه سيفًا من سيوفه وحتفًا من حتوفه فعج بطنه وفلق رأسه وعجل الله بروحه إلى النار فبئس القرار .

قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

فمسيلمة والأسود وأمثالهما لعنهما الله أحق الناس دخولا في هذه الآية الكريمة وأولاهم بهذه العقوبة العظيمة[١] .

بهاء الله مؤسس البهائية :

الكذاب الملعون الذي أعلن على أتباعه بأنه الموعود الذي أخبر عنه الباب وسماه بمن يظهره الله وأسست الديانة الجديدة بدعوى أنه صاحب الشريعة المستقلة كما كان الشيرازي صاحبها وأنه ناسخ لشريعة البيان كما كان الشيرازي ناسخًا لشريعة الفرقان فقبله بعض البابيين وسموا بالبهائية وأخيرًا ارتقى على عرش الربوبية والألوهية يدعى الرسالة والنبوة ثم الألوهية .

فتعالوا إلى الكذاب حسين علي المازندراني بهاء الله :

انظر إلى دجال الدجاجلة الذي يقول : لا يرى في هيكلي إلا هيكل الله ولا في جمالي إلا جماله ولا في كينونتي إلا كينونته ولا في ذاتي إلا ذاته ولا في حركتي إلا حركته ولا في سكوني إلا سكونه ولا في قلمي إلا قلمه العزير المحمود .

وقال : لم يكن في نفسي إلا الحق ولا يرى في ذاتي إلا الله .

ويقول : والذي ينطق في السجن الأعظم إنه لخالق الأشياء وموجد الأسماء .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٦ ، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .

وقال الفاجر عن نفسه : قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء .

ويقول العباس بن الخناس ـ بن البهاء وخليفته : إن الأيام التي ظهر فيها موسى كانت أيام موسى والأيام التي ظهر فيها المسيح كانت أيام المسيح وأيام إبراهيم وهكذا أيام الأنبياء كلها وأما ذلك اليوم ـ يوم ظهور المازندراني الكذاب ـ كان يوم الله .

ويقول أيضا : إن الجمال الأقدس الأبهى ـ حسين المازندراني ـ قد استوى ذلك اليوم ـ يوم دعواه الخبيثة ـ على عرش الربوبية الكبرى وتجلى على أهل الأرض والسماء بكل أسمائه الحسنى وصفاته العليا [1] .

هذا المجرم الأثيم هو قبلة البهائيين يقول : إذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطري الأقدس المقام الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى ومقبل أهل مدائن البقاء ومصدر الأمر لمن في الأرض والسماء .

انظر إلى الدين الذي أتى به دجال الدجاجلة .

الصلاة : من يطالع كتبهم المقدسة ـ النجسة ـ لا يجد فيها طريقة أدائها إلا ما كتبه البهاء في كتابه : الأقدس الفقرة ١٩ : قد فصلنا الصلاة في ورقة أخرى طوبى لمن عمل بما أمر به من لدن مالك الرقاب .

فأين ذهبت هذه الورقة؟ قالوا : إن خصوم البهاء سرقوها منه وهم لذلك يبكون ويتألمون !!

ومحرم الصلة جماعة بقوله : كتبت عليكم الصلاة فرادى قد رفع حكم الجماعة إلا في صلاة الميت إنه لهو الأمر الحكيم .

الصوم: قد كتب لكم الصيام في شهر العلاء صوموا لوجه ربكم العزيز المتعال .

وشهر العلاء: هو آخر الشهور البهائية التسعة عشر ويشتمل على الأيام التسعة عشر .

وأما فريضة الصوم فقد عفى عنه المسافر والمريض والحامل والمرضع والهرم والكسول وعند التكسر والتكاسل لا يجوز الصلاة والصيام وهذا حكم الله من قبل ومن بعد .

---

(١)نقلاً عن الجزاء من جنس العمل ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ .

الزكاة : قال البهاء : سوف نفصل لكم نصابها ـ إذا شاء الله وأراد .

إنه يفعل ما يشاء بعلم من عنده إنه لهو العلامُ الحكيم .

والعلام الحكيم لم يستطع بيان نصابها وتفاصيلها !!

بل قالوا : يعمل في الزكاة كما نزل في الفرقان ـ أي القرآن ـ والمعروف لمن له أدنى إلمام بالإسلام أن تفاصيل الزكاة ونصابها في السنة لا في القرآن (١) .

الحج : الحج للبيت الأعظم في بغداد وبيت النقطة في بغداد وهو واجب على الرجال دون النساء .

الطهارة : رفع حكم دون الطهارة عن كل الأشياء ـ قذره كانت أم نجسة ـ وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه هو الغفور الكريم .

فهذه شريعة البهائيين منتنة خبيثة كأحكامها وقذرة نجسة .

المحرمات عند البهائيين :

لا يحرمون إلا زوجة الأب وبقية نساء العالم حلال عندهم في كتبهم ويحرمون تعدد الزوجات فوق الاثنتين .

وانظر ما يقول الفاجر : ومن اتخذ بكرًا لخدمته لا بأس عليه كذلك كان الأمر من قلم الوحي بالحق مرقومًا بل من قلم الشيطان أيها العربيد .

أما الزنا فإنهم لا يعدون الزنا إلا مالم يرض به أحد الطرفين ومن اقترف هذه الجريمة بدون الرضا لا عقاب عليه بل يؤخذ منه الأجرة لأنه بالأجرة تنقلب السيئة حسنة، يقول المازند دراني : قد حكم الله لكل زان وزانية دية مسلمة إلى بيت العدل وهي تسعة مثاقيل من الذهب .

أما الزاني المحصن والزانية المحصنة فلا حكم عليهما إلا أن يحكم عليهما بيت العدل.
هذا قول نبي البهائية عباس عبد البهاء .

هذا الفاجر البهاء قصته وفجوره مع قرة العين شيطانة البابية وقد كانت متزوجة

(١) الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ٢٨٦ .

والغريب أنها هي التي منحتـه هذا اللقب : بهاء الله فالطاهرة كما كانوا يلقبـونها أسمته : بهاء الله فهي أول المتفوهين بكلمة بهاء الله وكفاه هذا جزاء .

وهذا المأفون منع من الارتقاء على المنابر .

من افتراءات البهائية :

يقول البهاء في رسـالته إلى الشاه : قد جعل الله البلاد غـادية لهذه الدسكرة الخضراء وزباله لمصباحه الذي أشرقت به الأرض والسماء يقول: أسلمت داعـية البهائية وقد تنبأ بهاء الله وعبد البهاء بأصرح وأوثق عبارة عن النصر السريع للأمور الروحانية .

ولما سئل عـباس عبـد البهاء : إذا كـانت دولة من دول العالم العظيمـة تؤمن بالديانة البهائية أجاب : سيؤمن جميع أهل العالم.

وصرح أيضًا : هـذا القرن قرن شمس الحقـيقة وهذا القرن قـرن تأسيس ملكوت الله على الأرض بل وصـرح أيضًا بأنه سنة ١٩٥٧م تتـأسس وحدة الإنسـانية وكـذب الكذاب وابنه.

انظر عميل الروس الذي ادعى الألوهية كيف أظهر الله عجزه ومسكنته ؟

الجزاء من جنس العمل :

وكتب إلى شاه إيران يقول : ما وجدت في أيامي مقرًا من على قدر أضع رجلي عليه كنت في كل الأحيان في غمرات البلايا التي ما أطـلع عليها أحدكم من أيام اضطربت فيها أحبتي لضُـري وكم من ليال ارتفع فيها نحيب البكـاء من أهلي خوفًا لنفس ولا ينكر ذلك إلا من كان عن الصدق محرومًا .

الكذاب الدجال يبكي وينوح ويشـتكي ويعلى العويل والصراخ ويقـول : كم من ليال فيها اسـتراحت الوحوش والطيور في أوكارها وكان الغـلام ـ الغلام والرب ـ في السلاسل والأغلال ولم يجد لنفسه ناصرًا لا معينًا .

إله يستصرخ ورب يحتاج . . . ﴿ **فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾ [النساء : ٧٨] .

هذا الكذاب الذي افترى على الله وزعم أن كتابه الأكبر الذي يسمونه : الأقدس ناسخ لجميع الكتب السماوية : وآية واحدة منه خير من كتب الأولين والآخرين .

حاول فيه محاكاة القرآن في فواصل آياته وكذا بقية كتبه : الإيقان ولوح البقاء .

هذا المجنون الذي اعتنق البابية ثم ادعى النبوة والرسالة ثم الألوهية ماذا كان جزاؤه في دار الدنيا قبل أن يذهب به إلى الهاوية ؟

لقد جُن ، ينقل عن أحد أبناء حسين المازندراني البهاء أنه جن في آخر حياته وقبل موته بمدة كما ذكره عمر عنائت نقلا عن ابنه : إن البهاء جن في أواخر أيامه وكان ابنه ـ عباس عبد البهاء ـ يعمل كحاجب له(١) .

جُن . . . جزاءًا وفاقًا .

وكما أن عقله الذي هو منحة له من الله ـ الذي كان يُميَز به عن الحيوان وتوحيد الله عز وجل فلما استعمله في غير ما جعل له وتفتق عقله عن حيل وأكاذيب وخدع وافترى على الله كذبا فقد سلبت منه هذه الهبة فأصبح معتوها مجنونا دون عقل يميز وكان الجزاء من جنس العمل .

(١) نقلا عن الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

الصد عن سبيل الله

كفار قريش :

كفار قريـش الذين صدوا عن سبيل الله وآذوا الرسول ﷺ وجرعـوا الصحابة صنوف العذاب .

وكم من أمثال قريش وكفارها يعيـشون بين أظهرنا الآن يذيقون الدعوة والدعاة صنوفًا من التعذيب وألوانا من القـهر والكبت حتى أصبح من يقـول : ربي الله هو الجرم وتقام له المحاكم والمشانق .

ولو أن محـمدًا ﷺ بعث فينا الآن ـ نحن المسلمين ـ لوجـد من بيننا من أمثال كـفار قريش الكثير ولوقفـوا في وجه دعوته ولآذوا من يؤمن بالله ولأخرجوه ولآذوه [1]، وذلك لأن فرقة الصد عن سبيل الله يتوارثها أهلها أجيالا وراء أجيال فإن كان أبو جهل ورفاقه من صناديد قريش كانوا هم أول من وضع أساس الصد عن سبيل الله فقد اكتمل البناء في وقتنا الحاضر بأمثال مصطفى كمال أتاتورك وحمزة البسيوني وفرعون القرن العشرين وغيرهم ممن ذهب إلى مزبلة التـاريخ وعاشت الدعوة ترفرف راياتها بإذن ربـها ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ .

ويقول سيد قطب : إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا يمكن أن يكون صاحبها أبتر كيف وهي موصولة بالحي الباقي . . .؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور وصدق الله العظيم وكذب الكائدون الماكرون .

وكما أن دار الـندوة كانت مكان اجتمـاع سادة قريش ليأتمروا برسـول الله ﷺ وكانت تشهد انتـفاش البـاطل ورجسه ومن بين جنباتها كانت تخـرج قرارات التعذيب والاضطهاد والصد عن سـبيل الله فكم اليوم من دور للنـدوة تعقد لإعلان المـذابح للإسلام والمسلمين؟ وكما أن الرسول ﷺ كان محاصـرًا في شعب أبي طالب فكم من مسلمين مشردين يعانون الأمرين في بقاع الأرض ولا ناصر لهم ، ولا جريرة لهم ولا ذنب إلا أنهم قالوا ربنا الله .

فالباطل ينتـفخ وينتفخ وينفش يموه على العين ولكنه هش سريع العطـب كالزبد يطفوا على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء أما الحق فله العقبى وله البقاء ولا يزول .

---

[1] من محاضرة للشيخ أبو إسحاق الحويني بعنوان جيل الصحابة .

أبو جهل فرعون هذه الأمة [١] :

قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

قبل بدر لما نجا أبو سفيان بعير قريش ولما ترك بدر بيسير نزلت قريش بالجحفة .

يقول ابن إسحاق : « ولما رأى أبو سفيان أن قد أحرز عيره أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ـ وكان بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثًا فننحر الجذور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا فامضوا .

فكان جزاؤهم من جنس عملهم وصاروا حديث الناس في الذل والهوان روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة : أن أبا جهل قال حين التقى القوم اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بمالا نعرف فأحنه ـ اجعل حينه غدا ـ الغداة فكان هو المستفتح [٢] .

قال تعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين ﴾ [الأنفال : ١٩] .

وقال الآمدي عن مطرف في قوله تعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ قال : قال أبوجهل : اللهم أعن أعز الفئتين وأكرم القبيلتين وأكثر الفريقين فنزلت الآية ﴿ إن تستفتحوا ﴾ .

قال الطبراني عن رفاعة بن رافع قال : لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يُخلص إليه فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك فوكز في صدر الحارث ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه في البحر ورفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي وخاف أن يخلص القتل إليه وأقبل أبو جهل فقال : يا معشر الناس لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك فإنه كان على ميعاد مع محمد ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد فإن عجلوا والذي يكلف به لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال فلا ألفين رجلا

(١) الجزاء من جنس العمل ، جـ ١ ، ص ٢٤٨ .
(٢) أحمد والنسائي والحاكم .

منكم ولكن خذوهم أخذًا حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ورغبتهم عن اللات والعزى ثم قال : أبو جهل متمثلا :

ما تنقم الحرب الشموس مني

باذل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدتني أمي

يا الله تجتمع شياطن الإنس والجن للفتك بالمسلمين ومحاولة وأد الدعوة الإسلامية في مهدها !!

أبوجهل الذي وقف للإسلام والمسلمين بالمرصاد وكان دائمًا ينتقص من رسول الله ﷺ والاستهزاء به وعذب المؤمنين عذابا أليما وقتل السيدة سمية بنت خياط أم عمار بن ياسر بحربة في حرها وعذب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عذابًا شديدًا . أبو جهل الذي استنفر قريشًا لحرب المسلمين صاحب هذا التاريخ الأسود الذي كتب بمداد من دماء الصحابة لا بد وأن تكون نهايته قبيحة ذليلة له ولأمثاله من فرقة الصد عن سبيل الله .

فعن عبد الرحمن بن عوف قال : إني لفي الصف يوم بدر إذا التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن لمكانهما انتقل لي أحدهما سرًا من صاحبه وقال لي : يا عم أرني أبا جهل فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه وقال لي الآخر سرًا من صاحبه مثله . قال : فما سرني أنني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابن عفراء(١) .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « **من ينظر ماذا صنع أبو جهل ؟** » قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال : فأخذ بلحيته قال : فقلت : أنت أبو جهل ؟ قال ذلك مقرعًا مستشفيا منه لأنه كان يعذبه ـ فقال : وهل فوق رجل قتلتموه أو قال : قتله قومه (٢) .

(١) البخاري .

(٢) البخاري ومسلم .

وعن ابن مسعود : أنه أتى أبا جهل فقال : هل أخزاك الله ؟ فقال : هل أعمد - أشرف - من رجل قتلتموه؟(١) .

وقال الأعمش : عن ابن إسحاق عن عبيدة عن عبد الله قال : انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع عليه بيضة ومعه سيف جيد ومعي سيف رديء فجعلت انقف - أضرب - رأسه بسيفي وأذكر نقفا كان ينقف رأسي بمكة حتى ضعفت يده فأخذت سيفه فرقع رأسه فقال : على من كانت الدائرة لنا أو علينا ؟ ألست رويعينا - تصغير راعي الغنم - بمكة؟ قال : فقتلته ثم أتيت النبي ﷺ فقلت : قتلت أبا جهل . فقال : « **الله الذي لا إله إلا هو ؟** » فاستحلفني ثلاث مرات ثم قام معي إليهم فدعا عليهم(٢) .

أبو لهب وزوجته :

قال تعالى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ [المسد] .

أبو لهب هذا الذي أفرد الله ذكره من كفار قريش وهو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب وكنيته أبو عتبة وإنما سمى أبا لهب لإشراف وجهه ولتلهب وجنتيه وكأن كنيته من جنس عذابه ومآله إلى ذات اللهب وامرأته أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان وهو نموذج هو وزوجته وابنه - من نماذج الكيد للدعوة والصد عن سبيل الله منذ اليوم الأول للدعوة .

ولقد كان أبو لهب كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له والازدراء به والتنقص له ولدينه .

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد من بني الديل - وكان جاهليًا وأسلم - قال : رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز ، وهو يقول : « **أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا** » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أهول ذو غديرتين يقول: إنه صابيء كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب .

روى محمد بن إسحاق عن ربيعة بن عباد الديلي قال : إني لمع أبي غلام شاب أنظر

(١) البخاري .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٦ .

إلى رسول الله ﷺ يتبـع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء ذو جُـمَّة يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فـيقول : « **يا بني فلان إني رسـول الله إليكم آمرك أن تعبدوا الله لا تشـركوا به شيئًا وأن تصدقوني وتمنعـوني حتى أنفذ عن الله فابعثني به** » وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخـوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيس إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له وتتبعوه .

فقلت لأبي : من هذا؟ قال عمه أبو لهب[١] .

قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد] .

روى البخـاري عن ابن عبـاس ـ رضي الله عنهمـاـ أن النبي ﷺ خرج إلى البـطحاء فصعد الجبل فنادى : « يا صاحباه » فـاجتمعت إليه قريش فقال : « **أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبـحكم وممسيكم أكنتم مصدقي؟** » قالوا : نعم قال : « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** » فقال أبو لهـب : لهذا جمعتنا ؟ تـبا لك فأنزل الله :﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [٢] .

وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقـول : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمـعتنا ؟ فأنزل الله :﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [٣] .

من أول يوم ينفرد هذا الكافر الصاد عن سبيل الله بالكيد لرسول الله ﷺ وتتبع خطوه والرد على مقالته فأفرد الله ذكره وشهره بكنيته دون بقية صناديد الكفر من قريش .

ولما قال للرسـول ﷺ : تبا لك وقـام ينفض يديه فتنزل السـورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته وتولى الله سبحانه عن رسول الله ﷺ المعركة.

قال : تبا لك فكان الجزاء :﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ دعاء بدعاء ولفظ بلفظ.

سائر اليوم ، سائر الدهر ، وأنت بعد في دار الدنيا﴿ وَتَبَّ ﴾ .

تباب وهلاك وبوار وقطع في آية قصـيرة واحدة تصدر الدعوة وتتحقق وتـنتهي المعركة

(١) أحمد والطبراني .
(٢) البخاري .
(٣) البخاري .

ويسدل الستار .

ولم يقيض الله له ولا لامرأته أن يؤمنا ولا لواحد منهما ولا ظاهرًا ولا باطنًا ولا سرًا ولا معلنًا فكان هذا أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة [١].

لما أجمع بنو هشام بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ ولو لم يكونوا على دينه لدافع العصبية القبلية خرج أبو لهب على إخوته وحالف عليهم قريشًا وكان منهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمدًا ﷺ وكان قد خطب بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبي ﷺ فلماكانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل محمد ﷺ بهما !

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني ولده وروى عن عائشة : لما دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإيمان قال أبو لهب : إن كان ابن أخي حقًا فإني أفتدى نفس يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي قال الله عز وجل - لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر : ٣] .

وعن عطاء : نزلت في أبي لهب وذلك حين مات ابن الرسول ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بتر محمد الليلة فأنزل الله في ذلك : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

قال القاسمي : أن أولاده الثلاثة : معتب وعتبة وهما أسلما وعُتيبة وهذا الذي دعا عليه النبي ﷺ لماهاجر بعداوته وإيذائه ورد ابنته وطلقها وقال صلوات الله وسلامه عليه: **«اللهم سلط عليه كلبا من كلابك »** وفيه يقول حسان رضي الله عنه :

من يرجع العام إلى أهله   فما أكل السبع بالراجع

قال ابن كثير : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام فقال ابنه عتبه : **والله لأنطلقن إلى محمد لأوذينه في ربه - سبحانه - فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فقال** : يا محمد هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى - فقال النبي ﷺ : **« اللهم ابعث الله كلبًا من كلابك »** ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال : يا بني ما قلت له؟ **فذكر ما قال له**

(١)ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٥٦٣ - ٥٦٤ .

قال : فما قال لك ؟ قال : قال : « **اللهم سلط عليه كلبا من كلابك** » قال : يا بني والله ما آمنْ عليك دعاءه »[١] .

وفي رواية عروة بن الزبير : أن عتبــة بن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتين محمدًا فلأوذينه فـأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ ورد عليه ابنـته وطلقها فقال رسول الله ﷺ: « **اللهم سلط عليه كلبـا من كلابك** » وكان أبو طالب حاضـرًا فوجم لها وقال : ما أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره.

قال هبار بن الأسود ـ وكان معهم في الرحلة ـ فـسرنا حتى نزلنا الشراة وهي مأسدة ـ كثيرة الأسود ـ فنزلنا على صومعة راهب فقال : يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد فإنها تسرح فيها الأُسـد كما تسرح الغنم فقال لنا أبو لهب إنكم قد عرفـتم كبر سني وحقي وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة والله مـا آمنها عليه فأجمعوا متـاعكم إلى هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها ثم افـرشوا حولها ففعلنا فجاء الأسد فـشم وجوهنا فلم يجد ما يريد تقبض فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزمة ـ ضربه ضربة ـ ففضح ـ شدخ ـ رأسه فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت من دعوة محمد .

لما تفل في وجه رسول الله ﷺ أتى الأسد فشم وجـهه وفضح رأسه لم يأكله من يديه أو رجليه إنما وجه بوجه .

بصق في وجه نبي وفضح في رأس شقي ومعذرة لرسول الله ﷺ .

فابن أبي لهب لا يناسبه إلا كلب .

وهل أغنى عنه ولده يوم موته .

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : رماه الله بالعدسة فقتلته فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا ما دفناه حتى أنتن وكانت قـريش تتقي هذه العدسة كما تتـقي الطاعون حتى قال لهم رجل من قريش : ويحكما ألا تسـتحيان أن أباكما قد أنتن في بيـته لا تدفنانه؟ فقالا : إنا نخشى عدوة هذه القرحة فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه فوالله ما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه ثم احتملوه إلى أعلى فأسندوه إلى جدار ثم رجموا عليه بالحجارة.

(١) ابن كثير : تفسير القرآن ، جـ ٤ ، ص ٢٤٧ .

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ أنها كانت لا تمر على مكان أبي لهب هذا إلا تسترت بثوبها حتى تجوز .

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ .

من للأحول غير ـ أم قبيح ـ أم جميل .

قال ابن العربي : العوراء أم قبيح وكانت عوراء من لها غير أبي النار أبي لهب حقق الله نسبه لقد صرفهم الله على أن يقولوا : أبو النور وأبو الضياء الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب الذي هو مخصوص بالمكروه والمذموم وهو النار ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقره .

قال ابن كثير عن أم جميل : كانت عونا لزوجها على كفره وجحوده وعناده فلهذا تكون يوم القيامة عونا عليه في عذابه في نار جهنم ولهذا قال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعني : تحمل الحطب فتلقى على زوجها ليزداد على ما هو فيه وهي مهيأة لذلك مستعدة له [١].

﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ عن مجاهد أنها كانت تمشى بالنميمة .

وقيل : كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ قال الربيع : فكان النبي ﷺ يطأه كما يطأ الحرير .

ومثلما حملت الشوك والعضاة تطرحه في طريق رسول الله ﷺ فكذا تحمل الحطب على زوجها في النار جزاءًا وفاقًا.

وقال قتادة : كانت تُعيِّر رسول الله ﷺ بالفقر ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب لشدة بخلها فعيرت بالبخل .

قال مرة الهداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة ـ حزمة كبيرة من الحك ـ نبات ذو أشواك ـ فتطرحها في طريق المسلمين فبينما هي حاملة ذات يوم حُزمة أعَيْت فقعدت على حجر لتستريح فجذبها الملك من خلفها فأهلكها خنقها الله بحبلها [٢].

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٥٦٥ .

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ، ص ٧٣٣٠.

قال ابن جبـير : حمالة الخطايا والذنوب من قولهم : فـلان يحتطب على ظهره دليله قوله تعالى : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ .

قال سعـيد بن المسيب : كانت لها قـلادة فاخرة فقالت : لأنفـقتها في عدواة مـحمد فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار .

وعن الثوري : هي قلادة من نار طولها سبعون ذراعًا .

يقول سـيد قطب في الظلال : أبو لهب ﴿ سيصلى نارا ذات لهب (٣) وامرأته حمالة الحطب ﴾ ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد تناسق في اللفظ وتناسق في الصورة فجهنم هي نار ذات لهب يصلاها أبو لهب وامـرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق مـحمد لإيذائه والحطب مما يُوقد به اللهب وهي تحـزم الحطب بحبل فعـذابها في النار ذات اللهب أن تُغل بحبل من مسد ليتم الجزاء من جنس العمل.

ومثلما أرادا أن ينغصـا عيش رسول الله ﷺ بتطليق ابنتيه وتتبـعه في المجالس بتكذيبه مثلما أثارا حـربا شعواء على النبي ﷺ على الدعوة لا هوادة فـيها ولا هدنة انظر إلى وقع السورة في نفس أم جـميل التي ذعـرت لها وجُن جنونهـا وحسبت أن رسـول الله ﷺ قد هجاها بشعر وبخاصة حين انتشرت هذه الـسورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير رزي لأم جميل خاصـة تصوير يثير السخرية من امـرأة معجبة بنفسـها مُدلة بحسبهـا ونسبها ثم ترتسم لها هذه الصورة : ﴿ نارا ذات لهب (٣) وامرأته حمالة الحطب ﴾ في هذا الأسلوب الذي يتبع عند العرب .

عن أسـمـاء بنت أبي بكر قـالت : لما نزلت : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ أقـبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر ـ حجارة ـ وهي تقول :

مذممًا أبينا

ودينه قلينا

وأمرَ عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسـجد ومعه أبو بكر فلمـا رآها أبو بكر قال : يا رسول

الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك فقال رسول الله ﷺ : « **إنها لن تراني** » وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني؟! قال : لا ورب هذا البيت ما هجاك فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها قال : وقال الوليد في حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل مِرْطها وهي تطوف بالبيت فقالت : تعس مذمم فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصان فما أُكلم وثقاف ـ ذات فطنة ـ فماأعلم وكلنا من بني العم وقريش بعدُ أعلم [١] .

قال ابن عباس : لما نزلت : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ وجاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبوبكر فقال له أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء فقال رسول الله ﷺ : « **إنه سيحال بيني وبينها** » فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت : يا أبا بكر هجانا صاحبك فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ما نطق بالشعر ولا يتفوه به .

فقالت : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر رضي الله عنه : ما رأتك؟ قال ﷺ : « **ما زال ملك يسترني حتى ولت** » [٢] .

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعرًا وكان الهجاء لا يكون إلا شعرًا مما نفاه أبو بكر وهو صادق ولكن الصورة المزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها قد سجلت في الكتاب الخالد وسجلتها صفحات الوجود أيضا تنطق بغضب الله وحربه على أبي لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله في الدنيا والنار في الآخرة جزاءًا وفاقًا والذل الذي يشير إليه الحبل في الدنيا والآخرة جميعًا [٣] .

عقبة بن أبي معيط لعنه الله :

هذا الشقي الذي آذى رسول الله ﷺ وانفرد بما لم يفعله أحد ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ فقطعت عنقه جزاءًا وفاقا .

---

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٢٦٥ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن ، جـ ٤ ، ص ٥٦٥ .
(٣) تفسير الظلال ، جـ ٦ ، ص ٤٠٠١ .

قال ابن إسحاق في أسرى بدر وعن عقبة بن أبي معيط وكيف قتل صبراً؟

قال عقبة بن أبي معيط حين أمر رسول الله بقتله فمن للصبية يا محمد ؟ قال : «النار» وكان الذي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح وكذا قال موسى بن عقبة في مغازية .

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت بن الأفلح قال : يا معشر قريش علام أقتل من بين مَنْ هنا؟ قال : على عداوتك لله ورسوله .

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال : لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال : أتقتلني يا محمد من بين قريش ؟ قال : « نعم أتدرون ما صنع هذا بي ، جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينّي ستندران وجاء مرة أخرى بسلا شاه فألقاه على رأسي وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي ».

قال ابن هشام : بل قتل عقبة علي بن أبي طالب فيما ذكره الزهري وغيره من أهل العلم [١] .

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ وأطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله ﷺ [٢] .

وحقا : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩] .

أبي بن خلف :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **اشتد غضب الله على قوم بنبيه ـ يشير على راعيته ـ اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله** » [٣] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على من قتله النبي في

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٣ ، ص ٣٤٠ .
(٢) الجزاء من جنس العمل ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ .
(٣) البخاري ومسلم .

سبيل الله اشتد غضب الله على قوم دمّوا وجه نبي الله ﷺ » (١).

قال ابن إسحاق : « كان أبي بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول : يا محمد إن عندي العَوذَ فرسًا أعلفه كل يوم فرقًا ـ مكيال ـ من ذرة أقتلك عليه فيقول رسول الله ﷺ : « **بل أنا أقتلك إن شاء الله** » .

قال ابن كثير : عن عروة بن الزبير قال :كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف ـ وهو بمكة ـ ليقتلن رسول الله ﷺ فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال : « **بل أقتله إن شاء الله** » فلما كان يوم أُحد أقبل أبي في الحديد مقنعًا وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله فاستقبل مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه فقتل مصعب بن عمير وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغ الدرع والدرع والبيضة فطعنه فيها بالحربة فوقع على الأرض عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور فقالوا له : ما أجزعك؟ إنما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : « **أنا أقتلك أبيا** » ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون فمات إلى النار : ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ (٢)[الملك : ١١] .

وقد رواه موسى بن عقبة عن سعيد بن المسيب وقال ابن إسحاق : لما أسنده رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : لا نجوت إن نجوت فقال القوم : يا رسول الله يعطف عليه رجل منا فقال رسول الله : « **دعوه** » فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصُمة فقال بعض القوم ـ كما ذكر لي ـ فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذ انتفضه ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه تدأدأ منها ـ عدا ـ مرارًا (٣).

لما رجع إلى قومه وقد خدشه الرسول ﷺ بالحربة خدشًا غير كبير قال : قتلني والله محمد ، قالوا له : ذهب والله فؤادك والله ما بك من بأس قال : إنه قد كان قال بمكة : «**أنا أقتلك** » فوالله لو بصق عليّ لقتلني فكان هذا الشقي هو الوحيد الذي قتله رسول الله

---

(١) البخاري .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٤ ، ص ٣١ ـ ٣٢ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٤ ، ص ٣١ ـ ٣٣ .

ﷺ بيده الشريفة قال حسان :

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أُبي يوم بارزه الرسول

أتيت إليه تحمل دم عظم ... وتُوعده وأنت به جهول

وقال أيضا :

ألا من مبلغ عني أبيا ... فقد أُلقيت في سُحق السعير

تُمنّي بالضلالة من بعيد ... وتقسم إن قدرت مع النذور

تُمنيك الأماني من بعيد ... وقول الكفر يرجع في غُرور

فقد لاقتك طعنه ذي حفاظ ... كريم البيت ليس بذي فجور

له فضل على الأحياء طرّاً ... إذا نابت مُلمات الأمور(١)

عبد الله بن قُمئة ـ أقمأه الله :

عن ابن عباس قال : اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه رسول الله ﷺ .

قال ابن حجر : ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه شُج وجهه وكسرت رباعيته وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها ووهى منكبه من ضربة ابن قُمئة وجحشت ركبته.

وعند ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري : أن عبد الله بن قمئة جرحه ـ أي الرسول ﷺ ـ في وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ﷺ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر : إن الذي رمى رسول الله ﷺ بأحد فجرحه في وجهه قال : خذها مني وأنا ابن قمئة فقال : « **أقمأك الله** » فانصرف إلى أهله فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل فدخل فيها فشد عليها تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع .

وعن أبي أمامة قال : رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد فشج وجهه وكسر رباعيته فقال : خذها وأنا ابن قمئة فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه :

(١) الجزاء من جنس العمل ، جـ ١ ، ص ٢٦١ .

« مالك أقمأك الله » فسلط الله عليه تيْس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة .

فلم يرسل الله عز وجل إلى ابن قمئة ملكا لينتقم لنبيه ﷺ وإنما سلط عليه تيسًا قطعة وألقاه من فوق الجبل لهوانه على الله .

بالذل قزم تطاول على النبي ﷺ وشج وجهه فـأخزاه الله وقطعه تيس وتردى من فوق الجبل إلى الهاوية ليخزي في الدنيا والآخرة[1] .

الوليد بن المغيرة :

كان أشد الناس عـداوة للرسول ﷺ ورويت عنه روايات كثيـرة في الكيد لرسول الله ﷺ وإنذار أصحابه والوقوف في وجه الدعوة والصد عن سبيل الله .

قال تعالى : ﴿ **وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾ [القلم : ١٠ ـ ١٦] .

قال سيد قطب : وقد قيل : إنه الوليد بن المغيرة وإنه هو الذي نزلت فيه كذلك آيات سورة المدثر ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ﴾ [المدثر : ١١] .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة في هذه السورة والتـهديدات القاصمة في السورة الأخرى وفي سواها شـاهد على شدة دوره سـواء كان هو الوليـد أو الأخنس ـ والأول أرجح ـ في حرب الرسول والدعوة كما هي شاهد على سوء هويته وفساد نفسه وخلوها من الخير .

فهو ﴿ **زنيم** ﴾ وهذه خاتمه الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة في عدو من أعداء الله والإسلام وما يعادي الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الزميم .

والزنيم من معـانيه : اللصيق في القوم لا نسب له فـيهم أو أن نسبه فـيهم ظنين ومن معانيه الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمـه وخبثه وكثرة شروره. والمعنى الثاني هو الأقرب في حالة الوليـد بن المغيرة وإن كـان إطلاق اللفظ يدمغه بصفـة تدعه مهـينًا في القوم وهو المختال الفخور .

ومن لم يجئ التهديد من الجبار القهار يلمس في نفـسه موضع الاختيال والفخر بالمال

(١) الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ٢٦٢ .

والبنين كما لمس وصفـه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبـه ويسمع وعد الله القاطع : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ .

والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير :

الأول : الاسم كما يوسم العبد .

والثاني : جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير .

إنها القاصمة التي يستأهلهـا عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم قال الفخر الرازي : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ إن في الآية احتمـالاً آخر عندي وهو إن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية .

فلما كان منشـأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشـأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية فعبر عن هذا الاختصاص بقوله : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ .

قال ابن عباس : سنخطمه بالسيف فجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش .

قال ابن كثير : قال ابن جرير : سنبين أمره بيانا واضحًا حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمـة على الخراطيم وهكذا قال قتادة : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه وفي رواية عنه : سنسمه سميًا على أنفه وكذا قال السدي وقال العوفي عن ابن عبـاس : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يقاتل يـوم بدر فيخطم بالـسيف في القتال وقال آخرون : سنسمه سمة أهل النار يعني: نسود وجهه يوم القيامة[1] .

ومن مات همازًا لمازًا ملقبًـا لناس كان علامته يوم القيامـة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين .

وقال ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن عباس : تعنى الاغتياب .

﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ يعني : الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم وينقل الحـديث لفساد ذات البين .

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي : يمنع ما عليه وما لديه من الخير .

(١) سير ابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٤٠٤ .

﴿ مُعْتَدٍ ﴾ في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع .

﴿ أَثِيمٍ ﴾ يتناول المحرمات .

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أما العتل فهو اللفظ الغليظ .

﴿ زَنِيمٍ ﴾ قال ابن عباس :﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال رجل من قريش : له زنمة مثل زنمة الشاة ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء لشهرة الشاة ذات الزنمة بين أخواتها(١) .

وإنما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القول :

زنيم ليس يعرف من أبوه — بغي الأم ذو حسب لئيم

قال ابن عباس :﴿ زَنِيمٍ ﴾ الدعي الفاحش اللئيم .

قال الرازي في « مفاتيح الغيب » : وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وكان له عشرة من النبيين وكان يقول لهم وما قاربهم : لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدًا فمنعهم الإسلام .

قال البقاعي : لما كان هذا المذكور قد أغرق في الشر فتوقع السامع جزاءه قال معلمًا أنه يجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ أي :نجعل ما يلحق به من العار في الدارين كالوسم الذي لا ينمحى أثره ، تقول العرب : وسمه ميسم سوء ، ولما كان الوسم منكتًا وكان جعله في موجع لا يُستر أنكأ وكان الوجه أشرف ما في الإنسان وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة .

قال تعالى :﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ١١ - ٢٩] ن .

يقول الشيخ سيد قطب :﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ التصعيد في الطريق هو أشق السير

(١) البخاري : انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٤٠٤ .

وأشده فإذا كان دفعًا من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقًا وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الورود يندب في طريق وعر شاق مبتوت ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق كأنما يصعد في السماء أو يصعد في عر صلد لا ري فيه ولا زاد ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق !

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه ويعصر أعصابه ويقبض جبينه وتكلح ملامحه وقسماته كل ذلك ليجد عيبًا يعيب به القرآن وليجد قولاً فيه جد مصطنع متكلف يومي بالسخرية منه والاستهزاء وبعد هذا المخاض كله وهذا الخرق كله لا يفتح عليه لشيء إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق .

إنها لمحات تدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر وتثبت صورته الرزية في صلب الوجود تتملاها الأجيال بعد الأجيال .

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات عقب عليها بالوعيد المفزع : ﴿ **سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا** ﴾ وزاد هذا الوعيد تهديدًا بتجهيل سقر ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ** ﴾ إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ثم عقب على التجهل بشيء من صفاتها أشد هولاً : ﴿ **لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ** ﴾ فهي تكنس كنسا وتبلع بلعًا وتمحو محوًا فلا يقف لها شيء ولا يقف وراءها شيء ولا يبقى وراءها شيء ولا يفضل منه شيء !

هذا دين رفيع لا يُعرض عنه إلا مطموس ولا يعيبه إلا منكوس .

قال ابن إسحاق : اجتمع الوليد بن المغيرة مع نفرمن قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم وإن وفود الرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذ فأجمعوا أمرًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقل به قال : بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا : نقول :كاهن قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكهان ولا سجعهم قالوا : فنقول : مجنون قال : وما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا : فنقول : شاعر قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا : فتقول : ساحر قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا : فما

تقول يا أبا عبد شمس ؟ قالوا : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : هو ساحر جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك قوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ الآيات (١) .

عن ابن عباس : كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان وكانت غلة بماله ألف دينار في السنة .

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ تيسير أسوره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصى عليه أمر .

وأكد ﴿ وَمَهَّدتُّ ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة ليتوسل بتفكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد .

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أي : وأعظم من ذلك أنه يطمع في الزيادة من تلك النعم ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وإبطال لطمعه في الزيادة من النعم وقطع لرجائه .

والمقصود إبلاغ هذا إليه مع تطمين النبي ﷺ بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق .

من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

قال ابن كثير : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ قال قتادة عن ابن عباس : صعودًا : صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه وقال السدي : صعودًا صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها .

وقال مجاهد : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ أي : شقة من العذاب وقال قتادة : عذابًا لا راحة فيه .

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أي : إنما أرهقناه صعودًا لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر أي وتروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال؟قال ابن كثير : خرج على قريش فقال : يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون وإن قوله لمن كلام الله فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا :

والله لئن صبـأ الوليد لتصـبأن قريش فلمـا سمع بذلك أبو جهل بن هشـام قال : إنا والله أكفـيكم شأنه فـانطلق حتى دخل بيتـه فقـال للوليد : ألم تر إلى قومـك قد جمـعوا لك الصدقة؟ فقال : ألست أكثرهم مـالاً وولدًا ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتـصيب من طعامه فقال الوليد : أقد تحـدث به عشيرتي ؟ فلا واللهلا أقرب ابن أبي قحـافة ولا عمر ولا ابن أبي كبـشة وما قوله إلا بسـحر يؤثر فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيـدًا ﴾ إلى قـوله :﴿ لا تُبْـقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَـةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ .

قال البـقاعي : أكملت له من سـعادة الدنيا ما أوجب التـفرد في زمانه من أهل بيـته وفخذه بحيث كان يسمى الوحيد وريحانة قريش فلم يرع هذه النعمة العظيمة.

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ .كَلاَّ ﴾ لم يزد بعد ذلك شيئًا بل لم يزل في نقصان حتى هلك ، ليرتدع عن ذلك الطمع وليزدجر وليرتجع فإنه حمق محض وزخرف بحت وغرور صرف .

﴿إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أي : بالغ العناد على وجه لا يعد عناده لغـيرها بسبب مزيد قبحه عنادًا .

والعناد : من كبر في النفس أو يبس في الطبع أو شراسة في الخلق أو خبل في العقل وقد جمع ذلك كله إبليس .

ولهذا كان جزاءه من جنس عمله فقال :﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أي ألحقه بعنف وغلظة وقهر إلحاقًا يغشاه ويحيط به وعيدًا لا خلف فيه .

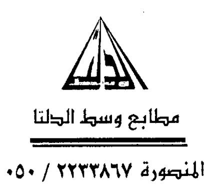
﴿صَعُودًا ﴾ أي : شيئًا من الدواهي والأنكار كأنه عقبة .

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ إلى قوله :﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ صاد عن وجوه الأفكار إلى أقفائها سكت الفًا ونطق خلفًا .

قال تعالى :﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي : الدركة النارية التي تفعل في الأدمـغة من شدة حموها ما يجل عن الوصف فأدخله إياها والوجه في الشدائد مرها وأذيب دماغه بها وأسيل ذهنه وكل عصارته بشديد حرها ؟ جـزاء تفكيره هذا الذي قدره وتخيله وصوره بإرادته في طبقات دماغه ليحرق أكباد أولياء الله وأصفيائه(١) .

(١) الجزاء من جنس العمل جـ ١ ، ص ٢٧١.

المحتوى


مطابع وسط الدلتا
المنصورة ٢٢٢٣٨٦٧ / ٠٥٠